هـكـذا
نهج لي الطريق

محمد علي باقري

هــكــذا
نهج لي الطريق

محمد علي باقري

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ مـ

للتواصل:

E-mail: maktabah.masjed.b@gmail.com

بســم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

فـي هـذه الأوراق إشـكال كان قــد وُجـه إلـيّ، وما كنت قــد أجبت بــه عليه...، وقــد نشرت آنذاك الإشــكال والجواب على لوحــة المسجــد آمـلا ومتوقعــا لذلـك نفعــا كثيرا لمن يسـتمع لي...، ولكني لـم أجــد ما توقعت، فكان إحساسي بالخيــبة كبيرا، فأهملتـه كغيـره من مقالاتـي وأحاديثي، وكدت أنسـاه لولا أن كان قـد يحـدث فـي وقت وآخـر مـا يذكرني به

ممـا ذكّرنـي بالمقال أن شـخصا أبلغني أن لـي أحاديث قديمة عن (المرأة في الإسـلام)، وأنـه قديما كان قد قام بإصلاحها، وأني كنـت قـد اطلعـت علـى ذلك فـي حينـه، وقلـت: الجهـد المبذول لإصـلاح الأحاديـث وإن كان كبيـرا لكنـه لم يكن نافعـا، ذلك لأن طبيعـة أحاديثي لا تقبل التنظيـم والإصلاح...

بالرغم من الملاحظة التي نقـلها عني أبدى رغبتـه في أن يقوم بعرض ما كان قــد فعله على بعض الأشخاص، ومن ثم نشره

لـم أرحب بالاقتراح، وأردت أن أبين السبب فلم أتوفق...

كنت أريد (والأصدق أنـه كان علي) أن أضيف إلى الملاحظـة التي نقــلها عني بشــأن أحاديثي فأقول لــه: إن ما كنت أنا أهدف

إليه بأحاديثي هو بيان الدين المتكون من مسائل مترابطة متعاضدة لبلورة المعرفة لطالب الدين وزيادة إيمانه...، ولم أكن أعرض المسائل ليُنظَر إليها كأمور متفرقة فيُركز على بعضها دون بعضها الآخر...، وكنت أحذر ذلك وأخافه حتى في المرحلة التي كنت أهتم بالفكر وأروجه قبل أن أكتشف وأعرف أن الفكر الديني لا ينفع إلا أن يكون من يقوم بنشره قائما به ومتعهدا له ومسؤولا عنه...، ومن كان كذلك لا يكتفي بتجهيز فكرة لمجرد عرضها على أحد، بل ليلفت بها نظره إلى الدين ويرغّبه فيه ويعينه على القيام للّه، كالمؤمنين الذين كانوا مع النبي صلى اللّه عليه وآله حسبما قال اللّه عنهم: (وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ...)

ومن كان كذلك لا يزوِّد بالفكر إلا طالبا للهدى مجاهدا في اللّه، أو من يرجو أن يكون كذلك، خوفا على الدين من أن يبتذل، أو يستغل لهدف دنيوي، كما حذر عنه ما في الكافي (١/ ٧٤) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار. إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها »

كان ذلك ما أردت بيانه بإجماله للمقترح لنشر أحاديثي عن المرأة في الإسلام، ولكني لا فقط لم أتوفق لذلك بل شعرت

بأنـه وجدنـي فظا فضجر وتأذى...، فتألمت مـن ذلك، كما ازددت إحساسـا بمرارة الفشـل في مـا كنت قد هدفـت إليه...

تذكـرت به المقال فراجعته، فرأيت أن أنشـره في ملف (معذرة إلـى ربـي)، وطمعا في أن يطلع عليـه أحد فينتفع به...

ولـم يتسـن لـي، ولـم أجـد ضروريـا، أن أغيـر منـه شـيئا غير بضـع كلمـات غيرمؤثـرة

ورأيـت أن أضـم إليـه مقطعـا مـن مقـال آخـر كنـت قـد كتبته ونشـرته علـى لوحـة ديوانيـة المسـجد فـي ٦/ رجـب/ ١٤٣٧

محمد علي باقري

١٩ شوال ١٤٤١

بســـم اللّه الرحمن الرحيم

الثلاثاء: ١٢/ج١/ ١٤٢٠

إيضاح وردّ على رسالة انتقادية بشأن حجب الأحاديث...

نص الإشكال

استلمته من الصندوق صباح الاثنين: ١١/ج١/ ١٤٢٠

السيد / محمد علي الباقري

المحترم...

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

لقد طلبتم أيدكم اللّه من المؤمنين المصلين المشاركة في إبداء وجهة نظرهم حول « الحديث الديني وكيف ينبغي التعامل معه » وقلتم ثبتكم اللّه أن الطريقة السائدة حاليا غير صحيحة في التعامل مع الحديث الديني، وعبرتم في حديثكم من يوم الجمعة قبل سفركم بعدم رضاكم عن هذا الأسلوب في التعامل مع الحديث الديني، والذي أوصلكم إلى هذه القناعة حسب تعبيركم عاملان هما: **(١)**

الأول: تجاربكم السابقة والتي عبرتم عنها بالطويلة والمريرة.

الثاني: أحاديث الكتمان المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

وسيكون حوارنا منصب حول هذان العاملان اللذين بنيتم عليهما قناعتكم هذه حتى يكون حوارنا مبتنٍ على أرضية مشتركة وبالتالي يكون نافعا إن شاء اللّه تعالى. بالنسبة للعامل الأول وهو تجاربكم السابقة فقد رجعت بها لأرشيف مكتبة المسجد واستعرت بعض الأشرطة المسجلة لكم من بعض المؤمنين. وأما العامل الثاني فرجعت بها لروايات أهل البيت عليهم السلام في باب الكتمان من الكافي لثقة الإسلام الكليني (قد).

وسيكون حوارنا معكم في العامل الأول على القاعدة المعروفة..

وهي.. ألزموهم بما ألزموا عليه أنفسهم. **(٢)**

فمن خلال سماعي لعدد من الأشرطة لأحاديثكم توصلت إلى قناعة. وقناعتي هذه منطلقة ومتفقة بما ألزمتم أنتم أنفسكم عليه.. **(٣)** فعلى سبيل المثال في أحد أحاديثكم المسجلة كنتم أيّدكم اللّه تتحدثون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير.

انطلاقا من تفسيركم للآية الكريمة « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقلتم ما

مضمونـه إن الدعـوة إلـى الخيـر تختلـف عـن الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر فالدعـوة إلـى الخير هـي الأفـكار والمفاهيم والمتبنيـات، ففـي الأول يجـوز الإكـراه بـل الضـرب فـي بعـض المـوارد أمـا هنا تقصـدون الدعوة إلى الخير والتي سـتصبح عقيدة والعقيـدة ترفـض الإكـراه وتأبـى الضغط وتنبـذ الطاغـوت أيا كان شـكله ومصـدره « فعليك البـلاغ وعلينا الحسـاب ».

وفي شـريط آخر كنتم تتحدثون فيـه عن الخلاف بين المؤمنين وكيـف يتـم التعامـل معه واستشـهدتم بمـا تحويه الرسـالة العملية للسـيد الشـهيد الصـدر (قـد) وقلتم أنها تحـوي فـي مقدمتها على رأي السـيد الشـهيد عن مفهوم العبادة وقلتم مع عظمة هذا المرجع العظيـم لكـن يجـوز لـك حتـى إذا كنت تقلـده أن تختلـف معه في المفاهيـم والأفـكار والمتبنيـات لكـن في نفس الوقـت والكلام ما زال لكم تلتزم بمسـائله الشـرعية من المسـألة الأولى حتى الأخيرة لمـاذا يكـون الأمـر كذلك حتى يبقي للإنسـان أعز شـيء خلقه اللّه فيـه وهي إرادته وحريتـه واختياره.

وفـي حديـث آخر لكـم كنتـم تتحدثون فيـه عن مهمة الرسـل والأنبياء للبشر واستشهدتم بالآية الكريمة « وأرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنـا معهـم الكتـاب والميزان ليقـوم الناس بالقسـط » وقلتم إن اللّـه سـبحانه وتعالـى لم يقل ليقيموا الناس بالقسـط بـل قال ليقوم

الناس لأن الناس بأنفسهم يجب أن يقوموا فليست مهمة الرسل إجبار الناس وإكراههم على القيام والحركة إلى اللّه عزَّ وجلَّ بل مهمتهم حسب تعبيركم البيان، لأنّ الرسول ليس عليهم بمسيطر وليس عليهم بوكيل، فاللّه هو الهادي « إن يعذبهم فإنّهم عباده وإن يغفر لهم فهو العزيز الحكيم. »

وفي حديث رابع لكم كنتم تفسرون فيه الآية الكريمة « وأنزلنا إليك الذكر لتبين لهم ما أنزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وقلتم ما مضمونه لم تكن مهمة إنزال الذكر الصلاة والصيام وهذه الأمور بل مهمته بعد التبيين هو جعل الناس تفكر وتقف على قدميها « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم آية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين » فاللّه جلت قدرته لا يريد أعناقا مشرئبة بل يريد قلوب مؤمنة عن وعي وبصيرة وعلم.

هذا غيض من فيض لما قلتموه واعتبرتموه من محكمات هذا الدين على حسب تعبيركم في أكثر من مناسبة وحديث. **(٤)**

والآن عود على ذي بدء أين هذا الكلام عن إرادة الإنسان المؤمن وفكره وحريته واختياره من حكمكم الأخير عن الحديث الديني والذي يفهم منه أن على المتحدث أن يلحظ أثر حديثه على المستمع بمتابعته ومراقبته فإن وجد أثر لذلك وإلاّ منعه من الاستماع. **(٥)**

وهـذا الموقـف منكـم مـن المسـتمع للحديـث الدينـي علـى فـرض صحتـه **(٦)** فهـو يصطدم بما كنتـم تعتبرونه مـن محكمات هـذا الديـن مـن حريـة الإنسـان المؤمن واختيـاره وفكـره وحركته إلى ربـه **(٧)**...*

هـذا بالإضافـة إلى ذلك فإن هـذه المتابعة للمسـتمع للحديث الدينـي **(٨)** توجـد فيـه تكلفًا في التصـرف إرضـاء للمتحدث **(٩)** وقـد تصـل حالـة التكلـف فـي بعـض مراحلها إلـى النفـاق **(١٠)** والعيـاذ باللّـه وهـذا مـا حذرت منه بعـض الروايات علاجًـا لهذه المشكلة. **(١١)**

والأكثـر خطـورة إذا مـا توسـعنا فـي هـذا البـاب فلـن ينغلـق أبـدًا فتصـور - أيدكـم اللّـه - لـو أن أحد أئمـة المسـاجد الأخرى طلـب مـن بعـض المصليـن بعـدم جـواز الصـلاة خلفه بحجـة أنه لـم يلحـظ عليهـم أثـر الصـلاة التـي المفـروض منهـا أن تنهى عن الفحشـاء والمنكـر كما جاء في القـرآن الكريم ومع أن هذا افتراض نظـري إلا أنـه علـى ضوء هـذا المتبنى المطـروح يكون أمـرًا على أقـل تقديـر غير مسـتبعد.. أليس كذلـك. **(١٢)**

أمـا عـن العامـل الثاني الـذي أوصلكـم إلى حجـب الحديث وعـدم نشـره هـي روايـات الكتمـان لأهـل البيت عليهم السـلام.

---

* وُضعت نقاط مكان بعض العبارات

وقـد راجعـت بـاب الكتمان فـي الكافي لثقة الإسـلام الكليني (قـد) فوجـدت ١٦ حديثـا جلهـا تتحـدث عـن وضـع التقيـة التي يعيشـها الأئمـة الأطهـار عليهـم السـلام **(١٣)** خاصة أنهـا صنفت بعـد بـاب التقية ممـا يدل على امتـداد البابين لنفـس الغرض **(١٤)** ويكفـي أن نسـتدل لتوضيـح المرام مـن نفس البـاب بحديثين:

١- فـي حديـث طويل عـن أبي عبد اللّـه (عليه السـلام) قال: (قولـوا الخيـر تعرفـوا بـه واعملـوا الخيـر تكونـوا مـن أهلـه ولا تكونـوا عجـلا مذاييـع، فـان خياركم الذيـن إذا نظر إليهـم ذكر اللّه وشـراركم المشـاؤون بالنميمـة، المفرقون بين الأحبـة، والمبتغون للبـراء المعايب).

٢- وفـي حديـث آخـر مـن نفـس البـاب عـن عيسـى بـن أبي منصـور قـال: سـمعت أبـا عبـد اللّـه (عليه السـلام) يقـول: (نفس المهمـوم لنـا المغتم لظلمنا تسـبيح، وهمـه لأمرنا عبـادة، وكتمانه لسـرنا جهـاد في سـبيل اللّه

قـال لـي محمـد بن سـعيد اكتـب هـذا الحديث بالذهـب، فما كتب شـيء أحسـن منه).

وهـذه الأحاديـث كمـا تـرى أيـدك اللّه أوامـر إرشـادية **(١٥)** تتكـرر فـي أحاديـث الأئمـة عليهـم السـلام فـي أكثـر مـن مـورد.

فلـم أجـد في هـذه الأحاديث علاقـة لكتمان الحديـث عن البعض ونشـره عنـد البعـض الآخر كما فهمتـم أنتم من عنـوان الباب وهو الكتمان (١٦)

نعـم هـي تحـذر مـن العجلـة والإذاعـة، وهـذه تحصـل حتى فـي الحيـاة العاديـة.(١٧) بل علـى العكس من ذلـك توجد فتاوى للسـيد الخوئـي (قـد) وللإمـام الخميني رحمـه اللّه يفهـم منها أن الأصل في الحديث هو نشـره والاسـتثناء حجبه. فقد سـئل السـيد الخوئـي في اسـتفتاء مـا نصه...

« مـا رأي سـماحتكم فـي مسـألة (حقـوق الطبـع) فهـل يجوز تصوير الكتب، ولا سـيما ما يحتاج إليه الإنسـان، ولغرض الانتفاع لا للاتجـار، ومـا كتب عليهـا حقوق الطبع محفوظـة وغيرها »

فكان جوابه قدس سره..

« لا أثـر فـي هـذه الجملـة لصاحبهـا، ولا مانـع شـرعا مـن مخالفتهـا » - وفـي تحريـر الوسـيلة الجـزء الثانـي - ص ٦٢٤، المسـائل المسـتحدثة. فتـوى للإمـام الراحـل (قـد) مـا نصـه...

مـا يسـمى عند البعض بحـق الطبع ليس حقا شـرعيا فلا يجوز سـلب تسـلط الناس على أموالهم بلا تعاقد وتشارط، فبمجرد طبع كتـاب والتسـجيل فيه بأن حـق الطبع والتقليد محفـوظ لصاحبه لا

يوجب شيئا ولا يعد قرارا مع غيره، فجاز لغيره الطبع والتقليد ولا يجوز لأحد منعه من ذلك. **(١٨)**

تفهم من مجموع هذه الفتاوى أن الأصل في الشيء الإباحة إلا ما جاء الدليل بحرمته.

واللّه العالم

وفقكم اللّه لمراضيه، وجمعنا معكم على الهدى... **(١٩)**

بســـم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

تمـهـيـد

١ - فـي التعليقات والمقالات المنشـورة أو الخطـاب العام في أيـام الجمـع وغيرها دعـوت المؤمنيـن لانتقـادي، فتطوعت بنشـر كثيـر مما تلقيـت من انتقادٍ بعـد التعليق عليـه لعدة أهـداف مترابطة أهمهـا الاسـتفادة من ذلك كخطـوة للدفع فـي طريق الحـوار الذي لابد منـه للعلم المطلوب، ذلك على الرغم ممـا أواجهه من صعوبة شـديدة فـي تحويـل الانتقادات إلـى حـوار وتوجيهها إليـه، فإن من الانتقـادات ما هـو أشـبه بالمحاكمـة، مضافا إلـى أن الانتقـاد ليس الباب الطبيعـي إلى حـوار صالح...

أجـل إن ذلـك أهـم مـا أسـتهدفه مـن تعريـض نفسـي للانتقاد ونشـر أشـدّ الانتقـادات أسـلوبا وأقواهـا خلافا بعـد التعليـق عليه، وعـدم إعلان غيـر ذلك مـن رسـائل التأييـد والإسـناد والتشـجيع، الأمر الـذي لا يكاد يفهمـه إلا قلة قليلة جـدا، فهناك مـن يتصوّر أن ما تصلني ليس إلا ما أنشـره من رسـائل الانتقاد فحسب، وهناك من يحتـار في أمرى إذا رآني أقتصر على نشـر الانتقاد فقط خصوصا إذا

وجـده شـديدا، فكم من عزيـز قد أبـدى حيرته مما أفعـل ونصحني بعدم نشـر الانتقـاد خصوصـا إذا كان شـديدا، خوفـا من ابتـذال ما نجاهـد لأجله...

٢- لم أسـتهدف من هذا التعليق شـخص المنتقـد وإن وجهت الخطـاب إليـه فـي الظاهـر، شـأنه في ذلك شـأن أكثـر مـا كتبته من التعليق على الانتقادات، وإنما استهدفت القارئ الباحث عن العلم، أمـلا في أن يقرأ الانتقـاد بدقة وموضوعية وبحثا عـن الهدى، حاملا فعل الناقد علـى الصحة بأنه أراد تبصيـري بأخطائي بغية إصلاحها، فهو بهذا قد مـارس حقا، بل أدى واجبا، ولا يمنـع عن ذلك طريقته التـي قد لا يستسـيغها البعـض، فإن النـاس متفاوتون في أسـاليبهم، وليحتمـل أن أسـلوب المنتقد قد يكـون متأثرا بتأذيه منـي، وهو أمر متفهـم، وإن لم أكن قادرا على علاج أذاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله

هـذا وأتمنى أن لا يتأثر طالب العلم بـردّي للانتقاد، وأن يجاهد نفسـه ليقارن بإنصاف شـديد بين الصورتيـن: الصـورة التي يحاول الانتقـاد إيجادهـا، والصـورة التـي يحـاول التعليـق بيانهـا، وذلـك بمقيـاس الحـق الـذي يفتـرض أن العاقـل يعرفـه بدرجـة أو أخرى لو تعقـل الأمر، فلو وجدنـي مخطئا فـي التعليق نبّهنـي فإما ازددت علمـا، وإما رددتـه فازداد هـو بذلك علمـا إن شـاء الله...

التعـليـق

عليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته

ترددت في التعليق على انتقادك ونشـره، فمن جهة رأيته فرصة واقعية لبيان بعض المسـائل وتوضيحها، وهي ما أترصده وأغتنمه، ومـن جهـة أخرى فقـد أثبتت التجربـة أن التجاوب مع هـذا النمط مـن الحـوار الإلزامـي لا يسـاهم في التفاهـم والتقارب بل يشـجع علـى التخاصـم والتباغـض ومزيد من التـباعد، وهــذا مـا أتجنبه وأفـر منـه حتـى إذا لـم يرد فيه منـع كما في الكافـي (٢/ ٣٠٠) عن أميـر المؤمنيـن عليه السـلام أنه قـال: « إياكم والمـراء والخصومة فإنهمـا يمرضان القلـوب على الإخوان وينبـت عليهما النفاق »

الانتقاد فرصة للعلم

بعــد تدبر الأمر وملاحظــة الأمرين وموازنـة الجهتـين رأيت أن أستــفيد من هـــذه الفرصة وأعلق على انتقـــادك ولـــكن للمرة الأخيرة فلا أتجاوب معك بعــد هـــذا إلاّ إذا رأيت نفسـك بحاجة إلـى حـوار مباشـر ورغبت إليه واسـتطعت الانكشـاف، أو حددت نفسـك ليمكـن الاتصـال بـك والاستفسـار عمـا يتضمنـه انتقـادك عـادة مـن نقـاط مبهمـة لـي، علـى أن لا تعتبـر هـذا دعـوة وطلبا، أو تعهـدا منـي بالتجـاوب معك، فقد لا أنشـط للحوار مع بعــض

الأشخــاص وإن كان مباشرا، ولا أرى نفسي مضطرا لبيان السبب مـا دمـت أملك نفسـي كمـا يملك غيري نفسـه

أجل إني وجدت في الانتقاد منطلــقا واقعـيا لبيان ما أراه نافعا لطلاب الحق وبغاة العــلم، فالهدف الأســاس من نشـر الانتقادات بشـكل عام هو القارئ، فعــليه أن يتعامل معها بجد واهتمام شـديد كمـا هـو ديدن الباحث عن الهُدى ومتبع الحـق، فإن وجد فيه علمًا اغتنمــه فرصــة للبحـث عـن الحق المنشـود، فإن تبيّن له تمسّـك به واتبعــه، ومن ثَم حــاول أن يلفت نظري إليــه، ولا يســتــصغر نفســه عن طرح الحق والدعوة إليــه، فإن وجدني جاحــدا للحق ورافضـا لـه رفضنـي وتركنـي، فـإن الحق أولـى بالقبـول والاتباع، وإن وجـد الانتقـاد خاطئـا حاول أن يكتشـف أسـاس الخطأ فيزداد بذلـك علما وبصيرة

هـــذا وإني قـــد نشرت نص الانتقاد بعـد أن أضفتُ إليه أرقاما لتمكيـن القـارئ من ربـط التعليـق المرقـم بالفقـرة المرقمة بنفس الرقـم في أصـل الانتقاد

(١)ــ المطلوب كان أمرا محددا

راجعـت مـا كنـت قـد قلتُـه بيـن الظهريـن مـن يـوم الجمعـة (٩/ ربيع الثاني/ ١٤٢٠هـ) قبل سفري، فلم أجــد فيــه مـا نسبتـه

لي فإني لم أدْعُ الحضور لإبداء نظرهم إلاّ حول حوار معيّن افترضته بصورة قريبة لفهم عامتهم، وإليك نص ما قلتُه آنذاك بشيء من الاختصار بحذف بعض العبارات الزائدة:

نصّ الدعوة...

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الموضوع الذي.. أطرحه عليكم.. لتتفكروا فيه وإن شاء اللّه إلى أن أرجع فتعينوني.. أستقرئ آراءكم. تضعون آراءكم في هذا الصندوق المُعد لهذه الأشياء... وأعتبرك إنسانًا مسؤولاً...، هكذا أفترضك. وعلى هذا الأساس أتكلم معك.

شخص يقرأ القرآن ثمّ ينتبه أنّ شخصًا آخر يكون جالسًا قريبًا منه فيُخَفِّض صوته. الشخص يقول: كنت أستمع لك. استمر في قراءة القرآن.

الشخص الأول يقول: لِمَ تستمع لي؟

الثاني: لأنّ صوتك حلو وتقرأ القرآن بصوت جميل فأستمع لك، وهل استماع القرآن يحتاج لسؤال؟!

الأول: هل سمعت من قراءتي شيئا؟... كنت أقرأ (مثلا) (إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته

زادتهـم إيمانًـا وعلى ربهم يتوكلون)... هـل حينما تليت عليك آيات اللّه واسـتمعت إليها هـل زادتك إيمانا؟

الثانـي: أنـا أسـتفيد. أنـت لِـمَ تسـألني هـذه الأسـئلة؟.. الزيادة الإيمانيـة راجعـة لـي، مرتبطـة بشـخصي

الأول: صـح، لا أحـد يحـق لـه أن يتهمـك أو يحاكمـك. لكنك تطالبنـي أنـا بقـراءة القرآن لك لتسـمعه.

الثاني: استماع القرآن.. على أي حال فيه ثواب

الأول: أنـا لا أعرفـك ولا أدري أنّ القرآن ينصبّ في نفسـك...، ويهديـك (إنّ هـذا القـرآن يهـدي للتـي هي أقـوم) أم... يتحـول إلى لغـوٍ في الكلام بالنسبــة لك، أنـا لا أدري، لا أتهمك. فلأني لا أدري أُكرم القرآن لأن يضيع (وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

يـدور الحـوار إلـى أن الشـخص الثانـي يقول: ظاهـري يكفيك! الشـخص الأول يقـول: أنـا أضـرب لـك مثـلا. لـك كلام.. تهتم به، تتكلم ولا تدري أنّ المستمع هل معك أو لا يهتم بكلامك وظــاهره أنه فقـط سـاكت. هل تتكلم؟... لأني أُكرم كلامي أن أُضيعه لا أكلم إلاّ من يهتم بكلامي. وكلام اللّه..... (اللّه نزل أحسن الحـديث كتـابا متشابهـا مثاني تقشـعر منـه جلود الذين يخشون ربهم ثمّ تلين قلوبهم

وجلودهـم إلـى ذكر اللّه ذلك هدى اللّـه)، أنا لا أفعل.

أيٌّ مـن المنطقيـن هـو الصواب؟ بلا تعصب، بـلا تأثر بالأجواء. كإنسانٍ مسؤولٍ متعهـدٍ...؟ فكر. الـكلام الـذي يُستهـدف بـه الهـدى هـل يجـب أن يوضع فـي موضعٍ، المتحـدث، المتكلـم أو القارئ له (يجـب أن) يحتمـل أنّ هذا ينتجُ النتيجة التـي تُطلب به؟ أم لا؟.

الإنســان يتحدث أو يقرأ القرآن ويذيعه، بعد ما عليه شـيء. ناس استفادوا (أم لا)، كله واحد.

هـــذان أسـلوبان، هـــذان طريقان. أيٌّ من الطريقين هو الصواب فـي نظـرك؟ بمعـزل عن الحكم الشـرعي. نحـن لا نتحـدث هنا عن المسـائل الشـرعية بهـذا اللحاظ. فكّر كمسـؤول، درِّب نفسـك على ممارسـة تعهدك..... فكر في هذه المسـألة اكـتبه طيّ نقاط محـــددة وإن شاء اللّه بعـــد أن أرجع من السفر،... ونستــفيد، نتعاون، نتحاور إن شاء اللّه

لابد من تحديد موضوع الحوار

ذلـك هـو خلاصة مـا قلته يوم الجمعة قبل سـفري، وكما قلت لـم أطلبْ فيه إلاّ إبداء الرأي بشـأن حوار محـدد كنت قـد افترضتـه ليكـون قابلا للتـــداول... وأمّا طريقتي والأسـس التـي أنطلق منها فإنّـي وإنْ كنـت قـــد أشـرت إليها في بعـض المناســبات لكنني لا

أظنني دعوت الحضور لإبداء آرائهم بشأنها، ولو فعلت ذلك كان عليّ أن أبيّن ما أقصد بتجربتي وأحددها لتكون واضحة قابلة للحكم، وكذلك الروايات التي أعتمدها وكيفية الاستناد إليها

أجل لا أتصور أنّي قد فعلت ذلك، ولا أتصورني أفعله إلاّ في حوار علمي متفق على طريقته وهدفه، ولو كنت قد أعلنته بالصورة المذكورة في انتقادك فإني كنت مخطئا في ذلك، وما أكثر أخطائي الناتجة عن الغفلة

إني أتعجب كيف تصورت أني قصدتُ بتجاربي المريرة أحاديثي السابقة لتتكلف سماعها...، ولو سألتني عنها – ولو برسالة خالية من التوقيع – لأرحتك من عناء سماعك لكلام لا تحبه

---

(٢)ـ الخصومة والإلزام

أعجبتني صراحتك بأنك تستهدف إلزامي... ولكنك لم تكنْ موفقا في قولك: « وسيكون حوارنا معكم في العامل الأول على القاعدة المعروفة... وهي ألزموهم بما ألزموا عليه أنفسهم »، لأن ما أشرت إليه إنما هو قاعدة فقهية تُعرف باسم قاعدة الإلزام استنادا إلى كلام مروي (الوسائل:١٥/ ٣٢١) عن

الإمـام الكاظـم عليـه السـلام جوابا على سـؤال عـن المطلَّقة على غيـر السُّـنّة أيتزوجهـا الرجل؟ فقال: «*ألزموهم مـن ذلك ما ألزموه أنفسَـهم وتزوجوهـن فلا بـأس بذلك*»

فالقاعـدة إنمـا توسـع على النـاس وتصحح لهم بعــض الآثار العمليـة لأعمـال المخالفيـن الباطلـة فـي الحقيقـة، كالـزواج مـن امرأة كان قـد طلَّقهـا المخالف طلاقا بدعيـا، فيجوز نكاحهـا بعـد الاعتــداد علـى الرغـم من كون الطلاق باطلا عنــدنا...، فليسـت لتلـك القاعـدة الفقهيـة أيّـة علاقة بمـا قمت به أنـت تجاهي

الـجدل والتخـاصم

ولـكن هناك طريقة شائعـة بين النـاس معروفـة باسم (الجدل) إنمـا يُستــهدف بهـا الغلبة على الخصـم وإفحامه بالإلزام، فمثــلا فـي ص ٣٧٤ مـن كتاب (المنطق) لشـيخنا المظفر (ره):

> « وأما الجدل فإنما يعتمد على المقدمات المسلّمة من جهة ما هي مسـلّمة، ولا يشترط فيها أن تكون حقا، وإن كانـت حقا واقعـا، إذ لا يطلب المجـادلُ الحقَّ بما هو حق – كمــا قلنــا – بل إنـما يطـلب إفحام الخصم وإلزامه بالمقدمات المسلّمــة سواء أكانت مسلّمة عند الجمهور وهي المشهورات العامّة والذائعات أم مسلّمة

عنـد طائفـة خاصة يعترف بهـا الخصم، أم مسـلّمة عند الخصم خاصة »

لا إلزام إلاّ بحوار مباشر

يبـدو أنّك قصـدت هذا، ولكنك أخطـأت الطريقة، فإن الإلزام لا يحصل بمجرد الإشكال على الخصم كيفما كان، بل باستدراجه وسـدّ منافذ الهرب في وجهه، وهذا لا يكون إلاّ بالتحاور المباشـر، فالمحـاورة ممـا لا بد منه في الجدل بخـلاف صناعة البرهان – أي الاسـتدلال للعلم وإثبـات الحق – حيث لا يجب فيهـا المحاورة، وإن كنت أرى الحوار مهمّا جـدا في الاسـتدلال على الحق أيضا حتـى لـو كان الحق عبارة عما يُتصور من أنه مسـائل متفرقة محقَّقة خارجا بمعزل عن الإنسـان

---

(٣)ـ لا إلزام بلا التزام فعلي

لم يكن صحيحا ما افترضته من أنّي « ألزمت نفسي بما أشرتَ إليـه مـن رأي » فإني لم أُصرّحْ بالالتزام بذلك، وحتى لو كنتُ قـد فعلـت ذلـك سابقـا فإنّـه لا يكفي للإلـزام فعـلا، إذ لا يمكن إلزام الخصم بما كان يراه سـابقا إلاّ بعد التأكد من اعترافـه به الآن...

أجـل إنّـي لـم ألزمْ نفسـي بما ذكـرتَ، ولا ألزم نفسـي بجميع

أقوالي وآرائي السـابقة، فليس كل ما كنت أراه صحيحا أراه كذلك الآن، بل وإنّي دائم المحاسـبة لآرائي لأجل تصحيحهـــا... وأظن هـــذا معروفا لمن اسـتمع لي بجـد فإنّي أعلنته كثيـرا وركزت عليه باعتـباره أساسا في حركتي الاعتقاديـة، وإنّي مستعـد لبيان وضعي بهـذا الشـأن لك أو لغيـرك في تحاور حقيقي مباشـر مفيد

---

(٤)ـ ما زلتُ أعتمد الحرية

ما زلتُ أعتقـــد أن الدين يعتمـــد ما كنت أعبر عنه بالحرية وأنه أســاس فـي التديّـن، فهـذا مما لـم يتغير رأيي بشأنــه بـل ازداد قوة ورسوخا ووضوحا، وإن ما أفعله الآن ليس في واقعــه تنــازلا عما سمّيتُه بالحرية بل تثبــيتا له بتصحيح الطريقــة التي كنت أسلكهــا لتحقيقــه، وذلك بعـــد أن علمت بالتـــدريج أن ذلك – أي ما كنت أسميــه حرية – لا يتحــقق إلا بالولاية، شـأنــه شــأن جميع ما لا بـد منــه فـي الــدين فـإن الولاية هـي (بـاب الأشـياء)... وهذا ما سـيتبيّن إن شـاء اللّه من التعليقة (٧)، وأسـتعجل هنا نبذا مرتبطـا بالحريــة عسـى أن يجعل اللّه فيه خيرا ونفعـا لطالب العلم، فأقول:

للحرّية دلالات متضاربة

إن واقـــع (**الحرية**) كنزعة إنســانية عامة مما يمارســه النــاس

جميعا ولو في قرارة نفوسهم، فهو بهذا معروف ولكن بإجمال آبٍ عن التفصيل، شأنها في ذلك شأن النزعات الإنسانية الأخرى كالحبّ مثلاً...، ولكنها لا تكون كذلك إذا عوملت (كمفهوم) للتداول الفلسفي أو التشريعي أو الدعوي مثلا، فمن هنا حصل كثير من الاختلاف في تعريفها بين متناوليها لهذا وذاك، فمثلا هناك نظرية فلسفية معروفة تقول: « إن الحرية ليست إلا عملية فهم السنّة الكونية (أو التاريخية) القاهرة والتنسيق معها »، بل وحتى أصحاب المذهب العالمي المعروف بالليبرالية الذي يعتمد الحرية شعارا يختلفون في تعريفها وبيان حدودها... فلا يمكن التعامل مع (الحرية) على أن مفهومها محدد واضح

العالم يدعو للحرية

ومن جانب آخر لم تعُد (الحرية) تلك النزعة الطبيعية الفطرية المعروفة بإجمالها بعد أن ركزت عليها اختصاصات شتى من الفلسفة والنفس والاجتماع والتشريع...، وخصوصا بعد أن تبنتها الدعوة العالمية لحقوق الإنسان كهدف وغاية، وروّجتها بين الناس ودعت إليها...، وبما أن العالم ليس الآن إلا كقرية واحدة فكان من الطبيعي أن تنحرف نزعة الحرية الطبيعية عند الناس عامّة وتتجه إلى ما هو (حرية) في نظر إمامة العالم، وما تؤم الناس إليه

كــذلك أخــذ النـاس بشـكل عـام ينسـاقون إلـى الحريـة، بل وينزعـون إليهـا بالطريقــة الرائجـة، لا لهـدف آخر بل لنفسـها كما تفعـل إمامـة العالم الآن

... ويدعو إلى (الحرية الدينية)

وممـا تأثـر بـــه الناس من دعـوة العالم بهذا الصـــدد ما ركزت عليه المنشـورات العالمية لحقوق الإنسـان بعنوان (الحرية الدينية) أو (حرية المعتقَد)، وهي تعني أن كل إنســان حر في مــا يعتقــد، وأن الديـن للّـه فلا يحق لأحد أن يتصدى لأحد في ذلك أو يتدخل فيـه، بل وعليه أن يحترم مـا يعتقده الآخرون...

لا يدعو الدين إلى الحرية لنفسها

يبــدو أن المنتقـد قــد حمـل كلامي عن (الحريـة) على ما هو الرائـج مـن مفهومهـا، وتصـوَّرَ أني دعـوتُ إلـى الحريـة (الدينية) حسـبما هـو السـائد مـن الدعـوة إليهـا باعتــبارها غايـة ذات قيمة ذاتيـة، وليـس ذلـك صحيحا فإني كنت أعرف أن الإسـلام لا يدعو إلـى شـيء غيـر اللّه وحــده، وأن كل ما يدعـو إليه ظاهـرا إنما هو لأجـل تلـك الغايـة، وأن إِلَيْـهِ الْمُنْتَهَـى وإِلَيْـهِ الْمَصِيـرُ، وإنـي وإن كنـت لا أذكـر الآن تفــاصيل كلامي سـابقــا، لكنـي أعلم إجمالا أنـي كنت أذكر هــذه الحقيقــة وأبني عليها، ولم أكـن أدعو إلى ما

عبّرتُ عنه بالحرية إلا في النطاق المذكور، أي بلحاظ كونها ضرورية للتقرب إلى اللّه والتوجه إليه، وهذا شرط يرفضه دعاة الحرية كما هو معروف، وكما أشرت إليه في الفقرة السابقة

التدخل الديني يعتمده الإسلام ويرفضه الكُفر

أؤكد أن ما عبّرتُ عنه بالحرية في الإسلام يختلف عما يدعو إليه العالم الآن من الحرية الدينية، وذلك لأن الإسلام إنما انطلق في دعوته من أساس أن الدين المتمثل في الإسلام فطري، فشرع - في ما شرع - الجهاد لكسر القيود ودفع الفتن ليستطيع الإنسان ممارسة حريته في إقامة وجهه... بخلاف العالم الآن حيث يكفر بذلك الأساس فيعتبر أي تدخل في تعامل الناس مع الدين تدخلا في حريتهم يجب التصدي له، فكيف بأمثال قول اللّه تعالى: « قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الأَخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »، وقوله: « ...اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ »؟!

تصورتُ الأمر واضحا

أجل إني كنت أقصد بالحرية ما استنبطتُه من القرآن الكريم

باعتبارهــا ضرورية للتــفكير ومن ثَمّ التـدين، وكنـت أتصـور أن هــذا كان يظـهر للمستـمع من خـلال أحاديثي، وأظن أني لم أكن أكتفـي بذلـك بل كنت أنبّــه بين حين وآخر أني لا أقصــد بالحرية مفهومهــا الرائـج، حيث أنهــا كانت مصطلحـا معروفا،كما قلت، وإني كنت حساســا تجاه المصطلحـات الرائجة، فلو أن أحدا تابع أحاديثـي آنـذاك بموضوعية لوجد الحساسـية المذكورة ظاهرة...

هذا وأظن أن المنتقد نفسـه وجد فيما سـمع من كلامي السابق أنـي فـي الوقـت الذي كنـت أحث علـى الحريـة كنت أنتقـد أيضا غيـر المتدينيـن ولـم أكـن أرى ذلـك الانتقـاد منافيـا للــدعوة إلى الحرية، ولم يكن ذلــك إلاّ لأني لم أكن أرى اللامبــالين بالــدين أحـرارا، ومعنـى ذلك أن مفهوم الحريـة، وكذلك الهدف منها، كان يختلـف فـي نظري عمـا عند اللامباليـن بالدين، بـل وعما يتصوره كثيـر مـن المهتمين بالدين

للفت الأنظار...

أمـا الهـدف مما قمـتُ به مـن الدعوة إلى مـا سـميتُه بالحرية، وبالأحـرى: الهـدف مـن تركيزي عليها فهـو لفت الأنظــار إلى ما لاحظتُـه مـن شـيوع التبعيـة والتقليد فـي التدين، خلافـا لما يحثّ عليـه الدين ويعتمــده من التعقل واتبــاع العلم... وهذا ما سـيأتي بشـيء مـن التفصيل عنـد الحديث عـن تجربتي

الحرية بلا ولاية

ومـع ذلـك أعترف أنـي أخطأت في اسـتعمال كلمـة (الحرية) بتركيـز، وكان عليَّ الانتباه إلى أنها سـتقود عملي إلى جهة مناهضة لهدفـي رغمـا عنـي كمـا فعلت ذلـك في نفـس المنتقد كمـا يبدو، خصوصـا وإنـي لم أكـن أخضـع حديثـي للولاية بل كنـت أحاول أن أبعــد عنـه تأثيري وولايتي باعتبارها قيـدا منافيا لما كنت أعتبره حرية المسـتمع!!، قبل أن أعرف أن حريته لا تتحقق إلا بالولاية...

أجـل أعتـرف بـأن مـا قمت بـه مـن التركيز علـى الحريـة كان لابـد وأن يُطغيهـا، وأنـه لا شـيء يسـتطيع تعبيدها وربطهـا بمعالم الديـن الأخرى إلا (الولاية) كما أشـرت إليـه آنفا، وكما هو مذكور في التعليقـة (٧) الآتية

تلـخيـص وتأكيـــد

أنـا أعتمــد الحريـة كالسـابق، ولم يتغيـر رأيي بهــذا اللحاظ، وإنما بلحاظ ما يحقق الحرية المطلوبــة، أي الحرية التي تستـــتبع التـــدين عبر التـــفكير، وقـــد كنت أتصور أن التركيز عليها يساهم فـي تحقيقهـا، ولكن وجدت أن ذلـك أخرجها عن طورها وأطغاها وجعلهـا غايـة فلـم أعد أركـز عليها، وتصـورتُ أن مشـكلة الناس

هـي الفهـم فحاولـتُ أن أجهّـز لهـم مفاهيم مـن القـرآن غفلة عن أن ذلـك ليـس هـو التعامـل المطلوب مـع الدين... وكنـت أتصور أن الكلام العــام يكفي لإيجــاد الحرية المطــلوبة، فوجــدت أن ذلـك لم يثمر شـيئا...

إن السـبب الرئيـس لـكل ذلـك الفشـل هو أنـي لـم آتِ الدين مـن بابـه الـذي هو الولايـة التي حاولتُ أن أشـير فـي التعليقة (٧) إلـى كيفيـة ارتباطهـا بجوانـب الدين المختلفـة، وأسـتبقه هنا بذكر شـيء مـن ذلـك مرتبـطٍ بمـا أشـار إليـه المنتقد بشـأن الاستشـهاد علـى الحريـة بآيات مـن القـرآن فأقول:

الاستشهاد بالقرآن وحده

ليـس مـا كنـت أسـتند إليه للحريـة مقتصـرا على الآيـات التي أشـار إليهـا المنتقـد، ففـي القـران الكريم آيـات كثيرة تدفـع المرء فـي اتجـاه ما سـميتُه بالحرية ولكن في الجانب الآخر هنـاك آيات تصادم ذلك كقوله تعــالى: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُـظْ عَلَيْهِـمْ » وذلـك لأن المنافقيـن هـم الذين أقروا بالإسـلام وأظهـروه، فـإن مضايقتهـم لنفاقهـم تنافـي الحريـة المطلوبـة، ولا شـيء يسـتطيع جعلهمـا متعاونتيـن فـي الواقـع إلا أن تُقرَنـا بولاية النبـي صلّـى اللّه عليه وآله التي كانت قائمـة آنذاك وتُلحظا معها...

... أنهما لن يفترقا..

وأما الآن فلأن تلك الآيات – كغيرها – لا تُلحظ مقترنة بولاية النبي (ص) بما لها من امتداد فلابد أن تتصادم فيما بينها فتعطل بعضها أثر البعض وقابلية هدايته للنفوس، بل وأن يصبح القرآن ألغازا يحتار المرء في فهمها قبل أن يضطر للحيلة في التعامل معها، ولا تنفع محاولات المفسرين لحل المشكلة، بل وتزيدها إشكالا كما لا يخفى على عاقل، ولا حول ولا قوّة إلا باللّه

هكذا كان استشهادي بالقرآن بمعزل عن الولاية باطلا، خاصة بشأن (الحرية) بلحاظ بُعدها الدعَوي الذي كنت أتناوله، حيث أن ذلك مما لا يخفى حاجته الشديدة إلى ولاية ضابطة...، كما أنه كان باطلا دعوتي إليها بلا تدخل مني لهدايتها في الاتجاه الصحيح وتحديدها وضبطها لمنع انفلاتها ما دامت المحجة متنكرة والإمامة غائبة، ولا ولاية ضابطة قائمة...

للحرّية إمامة قائمة

ويزيد المشكلة إشكالا وخطورة أن هناك مذهبا قائما يتولى الحرية ويدعو إليها، فمن الطبيعي أن تصب الدعوة إلى الحرية بلا ولاية وضبط حقيقي في مصب ذلك المذهب... كذلك كان المذهب الليبرالي السائد يستلم نتائج جهودي في الحث على

الحريـة ويسـوقها نحـو هدفه كمـا يفعل ذلـك بنتائج جُـلّ الجهود الدينيـة التـي يقـوم بهـا أنـاس بإخلاص هنـا وهناك لـولا جميعها، وذلـك لأن لليبراليـة إمامة قائمة، فهي تُفشـل العمـل الذي لا إمامة لـه، وتُبطــله وإن كان صالحا في نفســه، كمــا أن الإمامـة العادلة مـن اللّـه تُبطل مفعول السيئات وتنمّي الحسـنات كما فـي الكافي (١/ ٣٧٦) عـن أبي جعفر عليه السـلام...

---

(٥)ـ مجرد تطلّع وملاحظة...

لأنّـك تكرر هـذه الكلمات وتبنـي عليها إشـكالك أنبه القارئ إلـى أنـي لا أفعـل هـذا الـذي ذكرتَـه بالضبـط، وإنمـا الـذي أفعله هـو أنـي أتوقـع لحديثـي الديني أثـرا على المسـتمع وأتطلـع إليه، فـإن لـم أجـد الأثـر المتوقع علـى المسـتمع امتنعت عـن التحدث إليـه بحجب حديثي عنه، وهــذا كل ما أفعــله مع المسـتمع، وهو يختلـف عمـا أنـت تركـز عليـه بأنـي أتابـع المسـتمع وأراقبـه مما يوحـي بأنـي ألاحقه وأضايقـه.. الخ

اللّهم بلى لأني أحب أن أجد لحديثي نفعا فقد أسـأل المستمع عــن مـدى اهتمامه به وعـن خلفيته الدينية وما كان قد قرأ أو سـمع مـن مقال، وأراقب كلامه في بعض الموارد وألاحظ مواقفه، متمنيا أن ألحـظ فـي هـذا وذاك مـا يشـير إلـى أن حديثي قد نفعـه فعلا أو

بـدأ ينفعـه ولكنـي أكتفـي بما يظهـر لي منـه حين وجـوده معي في المسـجد أو الديوانية، ولا أتصدى لأحد من المسـتمعين بأكثر من ذلـك وإن كنت أحب أن أعـرف عنهم ما ينفعني في التعامل معهم، وقد أسـأل أحـدا عن بعضهم ولكن من دون ترصـد أو متابعة...

---

(٦)ـ وا شوقا إلى رفيق في (الطريق)

مع افتراض صحـة الموقف الجديد، فهل كان عليَّ أن أتعصب للموقــف القــديم الذي ســأبيّن أني وجدتــه ناقصا فاقدا لما هو أسـاس جدا، وأن لا أتنازل عنه لئــلا يظهر للناس أني أخطأت؟ أم كان علـيّ أن أرغـم أنفـي للّه صاغـرا وأتبع الحق مسـلما، وأحاول أن أكـون ممـن روى نهـج البلاغـة (ص١٨٢) عـن أمير المؤمنين عليـه السـلام أنـه قـال: « إن أفضل النـاس عند اللّه مـن كان العمل بالحـق أحـب إليـه وإن نقصه وكرثه (أي اشتد عليه) مـن الباطل وإن جـر إليـه فائـدة وزاده »...؟ أظنك لو تدبرت الأمـر جيّدا لوجدتني أهلا للتشجيـع على مــا فعـلتُ بــدل اللّوم، وليتـك فعـلت هـذا فكنتَ عوني في الهجرة المسـتمرة من الجهل إلى العلم، وسـندي فـي أن أكـون (توّابا) إلـى الحق لا أتقي في ذلك أحـدا، ولا أخاف لومة لائم...

---

(٧)ـ محاولة...

ليس ما تصورتَــه من أن حجب حديثي الديني عمن لا أعرفــه يناقــض الحرية التــي اعتمدتُها في الاعتقاد...، وهذا مما لا يمكنني بيانه إلاّ في حوار حقيقي مباشــر متدرج متواصل يُســتهدف به العلم لا الإلــزام، ومــع ذلــك فقد أشــرتُ فــي التعليقة (٤) إلــى بعض ما يرجــع إلــى هــذه المســألة، وإني أحــاول أن أشــير هنا إلــى جوانب أخــرى منهــا مــن خلال مرور ســريع على تجربتي بهــذا الصـــدد، متضرعــا إلــى اللّه عــزّ وجلّ أن يجعل في هـــذا نفعــا لطالب العلم إنه ســميع مجيب

تـجربــة مريــرة

لا يخفى أن استعمال الولاية بمعنى (التأثير) شائع في الدعوة الدينية، وبصورة مبالغ فيها بدرجة كادت أن تكون الأساس الوحيد للتعامل الديني، لا في ما لا بد فيه من التأثير كالمواعظ، بل فيما يرجع إلى الاعتقاد وأصول العقيدة أيضا، فكانت الظاهرة المشهودة أن كاد لا أحد يخرج من خطاب ديني بأكثر من مجرد التأثر...

خوف وقلق... ومحاولة...

لما أخذت أتعقل الأمور بدأت أشعر بقلق شديد وخوف على الدين من الولايات حيث لم يكن هناك ما يكبح جماحها ويوقفها عند حد، خصوصا وأن حدود الدين لم تعُدْ واضحة في نفسها فيحتار المرء فيها إلاّ أن يفترض لنفسه حدا بتعصّب فيقف عنده ويتصدى أيضا للآخرين...

البحث بالتعقل، لا بـ...

بدأت أبحث عن مسائل الدين بتعقل بعيدا عن التأثر بشيء أو بأحد، أي لا بالولاية بمعنى التأثير والتأثر، وأقصد بالتعقل الطريقة التي يفكر بها الناس عادة في حياتهم الطبيعية فبها يقبلون أمرا أو يرفضون... ولم يكن إذن يغنيني ما هو موجود

فـي الكتـب الكلامية المعروفة باسـم العقائد، إذ أنـه يعتمد الطريقة المنطقيـة المعروفـة التي أرى الناس لا يفكرون بهـا ولا يفهمونها، ولذلـك لا يعتقــدون بهـا، بل لا أظـن أن يُتوقع منهـا اعتقاد حيث لا يعتمــده أحـد في الخطاب الديني، بـل ويتجاهله تماما، مقتصرا به علـى التداول المَدْرَسـي فقط

ومـن الطبيعـي أنـي كلما تقدمـتُ فـي البحث اكتشـفت مزيدا مـن الشـواهد على أن الإسـلام يدعو إلى التفكيـر والتعقل والعلم، ويبتنـي حريــة الإنسـان، وكلمـا نظـرت إلـى الطريقـة الرائجة في الدعوة الدينية ترسخت قناعتي بمناهضتها للتعقل والعلم والحرية، وازددتُ اسـتنكارا لهـا، واشـتدت قناعتـي بضـرورة التركيـز على الاعتقـاد تعقـلا لا تأثـرا بأحــد وإن كان نبيـا حيث لم يجعــله اللّه على النــاس بمسيطر...، ومن هنا شـاع عني القول بأنه « لا ولاية لأحد علـى أحد فـي الفكر »...

لم أكن بدعا من الناس ولكن...

لـم أكـن بدعـا مـن النــاس في القـول بـأن الديـن يدعـو إلى التفكيـر والتعقـل والحريـة، فمـن المعـروف الشـائع القـول بعدم جواز تبعيـة الشخص لأحد في الاعتقاد وتقليـده في ذلك، ولـكني لـم أكتـفِ بإعـلان ذلـك القول وحسـب، وإنــما حاولت تطبــيق الأصـل المذكـور وتجسـيده في الواقـع فأخذت أدعو إلـى الحرية

والتدين بالتفكير بعيدا عن التأثر، ونهضت بالبحث عن الفكر الديني الحرّ وتجهيزه ومن ثم طرحه بعيدا عن المؤثرات التي تؤثر عادة على الإنسان وتُفقده الحرية المنشودة، وقمت ببيان العوامل المؤثرة سلبا على حرية الإنسان في التدين، وبتحذير الناس عما هو رائج في الخطاب الديني كزينة الصوت والمنظر وغير ذلك من عوامل التأثير...

لا أدعي أني كنت الوحيد الذي اهتم بحرية الفكر جدًّا، وإن ظننتُني كذلك، خصوصا وأني كنت قد (اعتمدتُ) تلك الحرية بدرجة كتبنا على كل شريط متضمن لحديث من أحاديثي النص التالي: « إذا استطاع هذا الحديث أن يُعينك على التفكير فقد حقق غايته سواء اقتنعت بفكرته أم لا »

اعتمدتُ قاعدتين

ومن الجدير بالذكر أن الإعلان المذكور كان مبنيا على قاعدتين مترابطتين وهما: أن تفكير المرء بحرية سيهديه إلى الفكر المهتدي، وأن الفكر المهتدي ليس مجموعة أفكار كلها صحيحة، بل هو عبارة عن أفكار مترابطة متعاضدة لا يضر بصلاحها كون بعضها خاطئا

بناء على القاعدتين المذكورتين كنت أتوقع أن من يستمع

الحديث وهو حرّ فإنه سيشاركني في اتجاه الفكر ومساره العام وإن وجد بعض أفكاري خاطئا إلاّ أن يكون ما يخطّئني فيه أساسا في أصل التفكير، حيث أن ما يفرّق بين الناس اختلافهم في ما يفكرون، وأما تخطئة بعضهم لبعض في نفس الأفكار – لا في وجهتها – فإنها لا تضرهم بل تزيدهم تماسكا وتعاونا...

××××××××××××××××

خيبة ... وتذكر وتبصر

كنت أتوقع مما فعلت خيرا كثيرا لكنني بالتدريج بدأت ألحظ أن من ركَّزْتُ عليهم في عملي وعقدت عليهم الأمل إما أنهم لم يتحرروا وأن قصارى ما حصل أنهم أخذوا يعتمدون عليَّ في العقيدة بدل تولّي أناس آخرين والاعتماد عليهم!، وإما لاحظت فيهم تخبطا أو انفلاتا وطغيانا، كما أشرت إليه في فقرة سابقة

وكان لتلك التجربة تأثير متدرج على التفاتي لما كان يركز عليه القرآن الكريم والحديث الشريف من الولاية، كما أن لالتفاتي إلى الأمر المذكور كان تأثير على شعوري بمرارة التجربة، فكلما تدرج شعوري بالمشكلة واشتدت حاجتي إلى بحث جذري لحلها، وكلما اجتهدت في البحث أكثر زادت الولاية في نظري تجليا

إمامة قائمة ضالة

مـن أبـرز ما قـد عرفتُه بصدد الولاية ما أشـرتُ إليـه في تعليقة سـابقة وهو أن ما يحدد مسـار أفكار الشـخص ويسـوقها إلى جهة معينة ليس قصـــده بـل الإمامة التي يتبعها، فـإن عرف إمامة الهدى واتبعهـا اهتـدت أفكاره وقُبلت، وإلا ضلت وبطلـت...، وأن العبد لا يعـرف الهـدى إلا أن يعرف الضلال، أي أن يعرف إمامة الضلال ليستــطيع تجنبهـــا، وبما أن إمامة العالم القائمـة الآن ضالة فالعبد لا ينجو إلا بأن يعرف طريقتــها في التعامل مع الأمور والأشــياء، ومن طريقتـــها أنها لا فقــط تنتقـي أفكارا فتروجهـا وتهمل أخرى وتحاربهـا، بـل أنهــا تكيـد الصالـح منهـا بتدجينـه وتحريفـه عـن الوجهة التي كان يستـهدفها من جهّزه وطرحـه، وإن إمامة الضلال لا تحتــاج فـي هــذا إلى خطــة خاصــة، بـل تجد لذلـك أنصارا متطوعين مـن الناس...

فالأفـكار الصالحـة لا تصـادم الضـلال ولا تقاومـه لمجـرد كونهـا صالحـة في نفسـها، بل وقــد يتــغذى بهـا الضـلال فيزداد قـوّة واستفحـــالا وطغيانـا بعــد أن يحوّلها إلى قطع غيـر مترابطة، كمـا هو مشـهود فـي العالـم الآن... فـإن ما يقاوم الضـلال إنما هو الهـدى، ولا يكـون هـدى إلا بإمامة، ولا تكون إمامـة إلا بولاية...

كان فكري صالحا ولكن...

إن أفـكاري كانت صالحة بإجمالهـا ولكنها لافتقـادها ولاية مقاومـة كانـت تنزلق في مسـارها فتقـع في مصيـدة إمامة الضلال فتـذوب فيـه أو تتحـوّل إلـى لغط ولغـو وغثاء لا يسـمن ولا يغني مـن جـوع، وإنـي أحـاول توضيح هـذا الأمر من خـلال مثال:

أذكر أن شخصـا أخبرني قبل حوالي عشـرين سـنة أن أسـتـاذا معروفـا فـي الفلسـفة قـد مدحنـي، وبمـا أنـي كنـت أقرأ لـه بعض الأحيان وأستجود بعض تحليلاته الفلسفية فإن مدْحـه لي أشـعرني بشـيء من الاعتزاز بأفكاري الدينـية، كمـا أثار المدح في نفسـي طمعـا فـي هدايـة الرجـل الـذي كان قطبـا مـن أقطـاب الليبراليـة، وكنـت حينـذاك أرجـو مـن المثقفيـن خيـرا باعتبارهـم أقـدر على الفهـم والفكر...

لا تضارب بين الأفكار

وبعــد أن تدرّجت في العــلم أخــذت أتأذى وأسـتوحش من ذلك الشــعور حيث علمت أنــه كان نتــاج الغفــلة عن أن الرجل باعتــباره مـن دعـاة الليبراليـة لـم يكن يمـدح دعوتي إلـى الحرية تأثـرًا بهـا، بـل لأنـه وجـد فيهـا شـيئا شـبيها بما هـو معجـب بـه... كمـا أنـه وجــد فيها مــا إن لـم ينفع مذهبــه لم يضره حيـث لم يرَ

فـي دعوتـي إلـى الفكـر مـا يصـدم المذهـب الليبرالـي حتـى وإن وجدهــا مختلفــة عنـه في خصائصهـا واتجاهها، وذلـك لأنه كان يـرى الليبراليـة مذهبـا عالميا حيًّـا، وكان يحسّ – ولعلّـه كان يعلم أيضـا – أن مـا يصـادم دعـوة قائمـة ليسـت الآراء والنظريـات التي تبـدو مضـادة لمـا تتضمنـه الدعـوة مـن نظريـات، فـإن الفكـرة لا تقـارع فكـرة وإن كانتـا مختلفتيـن بل وحتـى إذا كانتا مـن مقومات دعوتيـن متناقضتــين، إذ لا يمكـن التعــامل مع الفكـر بمعزل عن دعوتــه، فالتضـارب لا يكون بيـن الفكرين المختلفيـن، وإنما بين الدعوتيـن المتكونتيـن منهما

الفكر بحاجة إلى ولاية

ومـن جهـة أخـرى إن الفكر الدعـوي لا يسـتطيع أن يعيش بلا ولايـة، فـإن وجـد ولايـة تحتضنه وتقيم منـه دعوة فهـو، وإلا ضل وسـقط فـي حضـن دعـوة أخـرى فتقـوم باسـتعباده واسـتخـدامه بطريقتــها الخاصـة وبصورة أو أخـرى، أو أن تهمله ليهلك عاجلا أم آجـلا كمـا أشـرت إليه قبـل قليل، وأيضـا فـي التعليقة (٤)

تلك هي مشـكلة الفكر الديني في العالم الآن حيث أنه يفتقــد الولايـة المناسـبة فـي قبال ما لــه دعـوة قائمة، فمن الطبيــعي إذَنْ مــا هـو ملاحـظ من فشـل الفكـر الديني، بـل وذوبانه فـي الدعوة القائمـة وتغذيتهـا...، هـذا إذا كان الفكر الديني صالحا في نفسـه،

وكذلـك كان فكـري الديني قبل أن يحتمي بالولايـة ويتجذّر بها...

× × × × × × × × × × × × × × × ×

مـا أشـرت إليـه يكفـي للدلالة علـى أني قـد تعثّـرتُ وعانيت كثيـرا لأكتشـف أن هناك خللا أساسـا كان في تصـوري بأن مجرد الدعـوة إلـى الحرية سيوجـدهـا في النفـوس، وأن الطرح الفكري وحـده كافٍ لجعل الناس مؤمنـين، ولأجـد أن الولاية التي تركز عليها الروايات المرويـة عن أئمـتنا عليهم السلام كأساس للدين تعني قبل كل شيء أن الإيـمان لا يحصل من دونهـا، ومعنى ذلـك أن الولايـة (أي التأثيـر والتأثـر والاعتمـاد) ضرورية فـي الاعتقاد، علـى خـلاف ما كنت أتصـوره سـابقا وأركز عليه

كان عملي ناقصا

وبتعبيـر أدقّ: إن مـا قـد فعلته سـابقا كان ناقصا لا خاطئا، إذ لا شك فيما دعوت إليـه من أن الإسـلام يدعو إلى التفكير والتعقل والعلم وحريـة النيّـة، وأنـه يعلن أن لا إكراه في الـدين، وأن لا تـزر وازرة وزر أخـرى، وكنـت على صواب في مـا ركزت عليـه مـن أن التزييـن يؤثر على المرء ويدفعـه للتـنازل عـن حريته، أي بـأن ينوي ما يُملى عليـه لا ما يختاره بتعقـل، وأن الخطاب الديني الآن يسـتهدف التأثيـر فقـط، وأنـه يعتمـد لأجـل ذلـك المبالغات والقصـص وغيـر ذلك من وسـائل التأثيـر العاطفي

وكنـت على صواب فـي مخاطبة فكر النـاس وتوجيه أنظارهم إليـه وتنبيههـم إلـى أن هنـاك تعامـلا خاطئـا مـع الديـن، والسـعي لتحديـد الأخطـاء، هـذا مـن جانب، ومـن جانب آخـر البحث عن صورة أخرى للــدين مؤلفــة من أفكار معقولـة مترابطـة مستنبـطة مـن النصـوص الدينية بصـورة أو أخرى

لا دعوة بلا ولاية

أجـل لـم أخطـئ فـي كل ذلـك، وإنمـا أخطــأت فـي طرحي للبــديل بعيـدا عـن التأثيـر والولاية، فلم يُعتقــد ما كنت أطرحــه وإن تُفُــهّم وتُقبّل، مضــافا إلى أن الأفــكار التي كانت تتكون منها الصـورة البديلـة وإن كانـت بإجمالهـا مترابطـة بصورة شـجرية إلاّ أنها كانت تفتقــد الروح التي بها تكون شـجرة طيــبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلهــا كل حين بإذن ربّهــا، وتلك الروح هي مــا يعبر عنـه بالإمامة بلحــاظ، وبالولاية بلحـاظ آخر...

× × × × × × × × × × × × × × × ×

الإمامة والولاية...

بكثيـر مـن القفـز علـى مسـائل لا يمكننـي التـدرج عليها الآن وإن كان ضروريـا أقـول: إن كـون الإمامة والولايـة أصلا في الدين يعني – في مـا يعني – أن التـديّن لا يكون إلاّ بإمامة وولاية، فمبـدأ

الإمامـة يعنـي أن مجرد الاسـتــماع إلى متحــدث ديني والاقتــناع بفكـره لا يُجـدي شيــئا للتدين، بـل لابد من وجـود رابطة خاصة بينهما وهي الإمامة، فمن جانب المتحــدث فإنــه يدعو المستـمع إلـى جهة حديثــه ويؤمــه إليهـا، ومن جانب المسـتمع فإنه لو كان يتعامـل بفطرتـه التـي بهـا يطلـب الديـن فـي حديـث دينـي فإنه لا يكتفـي بمجرد الاسـتماع لغايـة أو أخرى، بل يندفـع مع المتحدث ويتبعـه في اتجـاه حديثه

الولاية تعهد متبادَل

وكذلـك مبـدأ الولايـة حيـث أن اسـتماع أحـد لحديـث ديني يعنـي تعهّدا بأنه قد أوكل أمره إلى المتحــدث اعتمادا على فهمــه وطريقتــه، والمتحـدث مـن جانبه قـد تجاوب مـع الاعتماد فتعهد المسـتمع ورأى نفسـه مسـؤولا عنـه، فأخـذ يهتم بأمره ويسـتهدفه ويراعيه في حديثــه... أي أنــه يتصرف كوليّ على المسـتمع الذي قــد اعتمــد عليـه باسـتماعه للحديث، هـذا كله إذا كان المسـتمع إنما يسـتمع القول لاتباع أحسـنه، وكان المتحدث مؤمنا بما يقول، وإلا فلا قاعـدة ولا نظام...

أجـل إن واقع هــذا (لا معرفته) شــائع بين الناس المهتمــين بالديـن، ولــذلك يتأثر المسـتمع بالمتحـدث، فبما أنه في أساسـه حالـة فطريـة فـلا إشـكال فيـه، وإنمـا الإشـكال فـي أن الحديـث

الديني قد لا يشير إلى طريق يُسلك، فمن الطبيعي إذن أن لا تكون هناك إمامة تُجسَّد وإنما ولاية تمارَس للتأثير فقط، أو يكون للحديث جهة فتكون هناك إمامة للمتحدث كما تكون له ولاية ولكن الإمامة لا تكون صالحة مهتدية

الإمامة الكبرى هي المقياس

إن المقياس لكون إمامة مهتدية هو أن تكون مؤتمّة بالإمامة التي شرعها اللّه عزّ وجلّ وجسّدها الأئمة عليهم السلام، كما – مثلا – في الكافي (١/ ١٩٨) عن الصادق عليه السلام أنه قال: « ... لا يهتدي هادٍ إلا بهداهم – أي هدى الأئمة عليهم السلام – »، وذلك لا بمجرد الكلام والادعاء بل بالتجسيد العملي والإشارة إليها بصراحة ووضوح، ومن الطبيعي أن الائتمام بهم لا يتوفر إلاّ لمن يعرف إمامتهم وهداهم، وهذا أهم ما أركز عليه في أحاديثي دعوة وبيانا...

× × × × × × × × × × × × × × ×

لابد من ولاية مهتدية

كذلك عرفت – في ما عرفت – أن المشكلة ليست في نفس التأثير والتأثر بالحديث الديني كما تصورت سابقا، فإن التأثير والتأثر مما لا بد منه، ولا يمكن منع ذلك إلاّ بمنع التدين

كنزعة فطرية في الإنسان، وإنما المشكلة في إمامة المتحدث فإذا لم تكن له وجهة يؤم إليها المستمع تاهت ولايته وطغى تأثيره عليه، وإذا كانت له وجهة خارج نفسه وشهواتها فإنه سيؤم المستمع إذن إلى تلك الجهة، فمن الطبيعي أن يستعمل حينئذ ولايته بالتدخل والتصدي لخدمة تلك الجهة وبمقدار ما تطلبه وتحتاجه، وبذلك يتحدد وينتظم تأثيره على المستمع، وإذا كان المتحدث مؤمنا بمعرفة فإنه يؤم إذن المستمع إلى جهة الأئمة عليهم السلام ووِفْق سُنّتهم، وبما أن من سُنّتهم التركيز على العلم وحرية النيّة والقرار فإنه يمارس ولايته الطبيعية لتحرير المستمع من القيود وتبصيره وجعله يعتقد بعلم لا بتأثر، أي أنه يؤثر عليه ليجعله لا يتأثر بمن يؤثر عليه بطريقة ضالة، وبهذا يصبح التأثير والتأثر خيرا ونعمة

× × × × × × × × × × × × × × × ×

لا حرية بلا ولاية

مقصودي الأساس من هذا الكلام الطويل هو أن تدخل الشخص فيما يرجع إلى استماع حديثه، ومتابعته لأثر ذلك على المستمع إنما هو (الولاية) التي يمارسها الإنسان في حياته اليومية وبصورة مستمرة تجاه كل أمر أو شخص يهمه بلا تكلف أو انتباه، ولا يمكنه أن يمتنع عنها في مورد إلاّ إذا كان مما لا

يهمه أو أن يتكلف الامتناع على مضض شديد لا يطاق، فمطلق التدخل في شؤون المؤمن لا يتنافى مع ما عبّر عنه **(المنتقد)** بـ(إرادة الإنسان المؤمن وفكره وحريته) وإلا لما شرّع اللّه عزّ وجلّ ولاية المؤمنين بعضهم على بعض... وإنما الذي ينافيها هو التدخل في نيّة المرء حيث أنها المنطقة الحرة الوحيدة التي لم يجعل اللّه عليها الولاية لأحد غيره، فما ظلّت نيّة المرء حرة فهو حرّ لم يضرر حريَّتَه شيء من القيود كما أشارت إليه رواية الكافي (٢/ ٨٩) عن الصادق عليه السلام

لابدّ من صبر النفس مع المؤمنين

بل إن المرء لا يستطيع ممارسة حريته إلاّ أن يكون مع أناس يماثلونه في التطلعات ويشاركونه في الطريق فيشكلون معا أمّة وإن كانت مصغرة، ولا تكون أمة كذلك إلاّ بولاية بعض أفرادها لبعض وولاية الجميع لأمر مشترك يمثله الإمام ويدعو ويهدي إليه وإن كان غائبا...، بل وإن تحقق الحرية الحقيقية لأحد وهي أن يكون بحيث لا يؤثر شيء على نيته بحاجة إلى ولاية لا لتعلمّه كيفية المحافظة عليها وتنميتها فقط، بل لتسنده نفسيا وتثبّت فؤاده فيستطيع أن ينوي ويحب ويبغض بنفسه ولنفسه، ومن المفترض أنه إذا كان كذلك نوى وجه اللّه باعتباره المسار الوحيد الذي قد فُطر عليه الإنسان، وإلى هذا يشير ما في

الكافـي (٢/ ٤٦) عـن الصـادق عليـه السـلام أنه قـال: « ... ولكل شـيء أسـاس وأسـاس الإسـلام حبنا أهل البيت »

لأظلّ حُرًّا

إن انتــباهي لموضع الولاية وأثرهــا على الإنسان في هـداه أو ضلالـه، وفـي أنـه لا يكون حرّا يمشـي سـويا على صراط مسـتقيم إلاّ بولاية تحميه المؤثرات والفتن وتزيل عن طريقــه العــقبات... أقول: إن انتبــاهي لــذلك قــد فرض عليّ أن أدنو ممن أعرفـه من المؤمنــين وأسـعى لتوليهم، وأن أعرض عن المشككين ومعرقلي سـيري علـى الصـراط، سـواء بكلامهـم أو باللامبـالاة الظاهرة من سـيرتهم حيـث أنهم يوحون إلـيّ اللامبالاة وإن لـم يقصدوا ذلك، وإنـي لو لـم أتجنّبهم فإما تــأثرت بهم كما فـي الكافي (٢/ ٢٧٥) أنه قــال رسول اللّه صلّى اللّه عليــه وآلـه: « المرء على دين خليله وقرينـه »، أو استــفزني وضعهم وألهاني عن وجهتي

أردت أن أقـول: كمـا أنـي لا أسـتطيع أن أكون حـرا في (نيّتي) إلاّ بولاية هادية إلى الحق، لا أستــطيع أن أكون حرا أمشـي سـويا على صراط مسـتقيم إلاّ بأن أتجنب من قد يستضعــفني بصورة أو أخـرى فـي قـراري ونيّتـي، فالحرية التي أنشـدهــا لنفسـي تفرض علـيّ وتجعلني أن أصبر نفسـي مـع من يمارس حريتـه في الإيمان بربه والتقرب إليه ويتخذ سـبيل المؤمنــين سـبيلا، وأن لا أتخــذ

مـن يجـادل فـي اللّـه بغيـر علـم ولا هــدى ولا كتاب منيـر خليلا فيضلنـي عـن الذكر بعـد إذ جاءني

ولأحمي المستمع

وبنفس المــلاك فـإن انتباهي لموضع (الولاية) جعلني أشـعر بالمسـؤولية تجـاه مـن يريـد الاستعـانة بي في ممارسـة حريتــه، فرأيتُ أن عليَّ السعي لحمايتــه ممن يتصــدى له ليؤثر على نيّتــه رغمــا عنــه، وأن أبعـد عنــه من يتراءى لي أنـه يُبطل أثر الحديث فـي نفســه ويوحـي إليـه الشـك والارتيـاب بالقـول أو العمل وإن كان بـلا قصد...

... لا إيمان بلا ولاية

ومـن زاويـة أخرى فـإن مما أثبتــته لـي التجربة والملاحظــة والاسـتقراء أن النفـوس لا تـكاد تكـون حـرة في نيّتــها وقرارهــا إلاّ بولايــة، لا لترعى حريتــها وتحميــها في الواقع فحسـب، بل لتشـعر بهـا النفس وتتولاهـا أيضا، فإن مـن طبيعة النفـوس أنها لا تطمئـن إلا كذلـك، وأنهـا لـو لـم تتـولّ ظلّت قلقـة حيرى بـلا نيّة حقيقيـة نابعـة عن أسـاس ثابت، فلم تتمكن إذَنْ من قصــد وجــه اللّه والإيــمان بــه حتى وإن تمكنت من معرفة ذلك بقدرة قادر...

أقول: إن هــذه الحقيقــة المجربة والملحوظة قــد دلّتني على سبب رئيس من أسباب تشريــع ولايـة الأئمة عليـهم السـلام وهو أن الإيــمان بالــدين لا يتــمّ من دونهــا، وإن فُرض سلامة مسائل الـدين في نفسها، وفُرض أيضـا إمكان فهم تلـك المسـائل بمعزل عن الولاية، وإن كان الفرضــان باطــلين إذ لا بد من الولاية أيضـا لحفظ مســائل الدين وحمايتها، ولبيان المســائل وتعليمها...

المتحدث ومن ثَمّ حديثه

إن مـا أشـرت إليـه آنفـا مـن حاجـة النفـوس فـي الإيمـان إلى الولايـة ينعكـس فـي مظاهـر متعـددة مـن مظاهـر حركـة النفـوس الطبيعيـة، منهـا مـا نحن بصـدده هنا من أن المسـتمع إنما يهتــدي بشخــص المتحــدث إذا كان مؤمنـا وكان حديثـه صـالحا، فإن ما يتعــامل معـه المسـتمع مباشـرة ليس الحديـث الذي يسـمعه، بل المتحـدث ومـن ثَـمّ حديثـه، هـذا إذا كان طالبا للهـدى، وإلى هذا يشـير الحديث المشـهور الـذي رواه الكافـي (٦/ ٤٣٤) عن الباقر عليـه السـلام: « مـن أصغى إلى ناطـق فقد عبده... الـخ »، ولذلك حثـت الروايـات علـى أن ينظر المرء إلى من يأخــذ عنـه علمه كما فـي الكافـي (١/ ٣٢)، وما فـي البحـار (٢/ ٩٦)، وأن يتعلم العلم مـن حملـة العلم كمـا في الكافـي (١/ ٣٥)

لم تُفرض الولاية لمجرد التعبيد...

أجل، لو أمكن الاهتــداء بالأفكار والمفـاهيم وحـدها لأمكن الإيــمان والاهتـداء بالكتـاب وحده باعتبـاره تبيانا لكل شـيء بلا حاجـة إلـى ولايـة الأئمـة عليهـم السـلام، فـإن الولايـة لـم تُقـرَن بالكتاب تعبــيدا، بل تشريعـــا وهدايـة، أي لحاجة الكتاب الواقعية إلـى الولايـة والإمامـة فـي هدايته للتي هـي أقوم

× × × × × × × × × × × × × × × ×

كذلـك، وبالتدريج وعبـر كثير من الرصد والبحث والمراجعة، وصلـت إلى قناعة واضحــة ثابتــة بأن الــدعوة الدينــية لا تنجح إلاّ بالولايـة بمعنـى أن يقـوم الداعـي بإيصـــال الفكـر إلـى نفوس المسـتمعين بـدل الاكتفـاء بإيصاله إلـى أذهانهم الأمـر الذي كنت أفعـــله سـابقا، وهـو لم يكـن يحتاج إلـى الولايـة والتأثيـر، فإن ما هـو بحاجـة إلـى ولاية وتأثيـر هي النفـس لتعتقد، لا الذهـن ليفهم

× × × × × × × × × × × × × × × ×

الولاية الهادية لواقع الحياة

أعود فأقول: إن السـبب الرئيس لذلك الخطأ الأساس وأخطاء أخـرى متزامنة أني تعـــاملت مع الولاية بالطريقــة المتعارفة حيث قمـت بالبحـث فـي النصـوص والكتـب عـن ولايـة الأئمـة عليهم

السلام، وبعـــد أن تأكـدتُ منهـا، أخـذت أتعـامل معهـا بالطريقـة الرائجـــة المعروفـــة مـن اعتـبارهـــا أصلا من أصول الـــدين وفي عرضها وإن كان أهمّها حسبما جاء في كثير من النصوص الدينـية، واعتـــبارها الأصـل المظلـوم الـذي لا بـد مـن القيام للدفـاع عنها بحمـاس لا يخلـو مـن تعصـب، والاسـتناد إلـى أحاديـث الأئمـة عليهم السـلام، وذكرهم، مـع حبهم وبغض من ظلمهم، والاهتمام بسـيرتهم للتأسي المباشر

الزهد أو مجرد (تقشف)؟

مـن أمثلـة التأسـي بسـيرة الأئمـة عليهـم السـلام أنـي حينمـا وجـدت – فـي مـا وجـدت – أن عليًّـا عليـه السـلام كان يزهد في الدنيـا ويحـارب التـرف والمترفيـن، حاولـت أن أزهـد فـي الدنيـا وأتجنـب التـرف وأحاربـــه فـي النفـوس وأن أطـرح ذلـك وأدعو إليـــه... وهـو مـا جعل كثيـرا من النـــاس يتصـورون أن مـــا أدعو إليـــه هو (التقشـف)، خصوصـا وأن من روّاد المسـجد مَن أخذوا يمارسـونه – أي (التقشـف) – بشـكل ملفـت، كمـا أن منهـم مـن تكلـف التركيز على التقشـف بلا أي رغبـــة للزهد فـي أمور أخرى كالجـاه مثـلا، وذلك خلافا لما كنت أفعلـه من الدعوة إلى (الزهد) باعتبـاره حركة شـاملة

ثـم إني كنـت أطرح (الزهد) ضمن شـجرة الدين فأسـعى لأن تكـون متكاملـة من جهـة، وأن تكون مسـائلها مترابطة فيما بينهـا ومتدرجة ومتفـاعلة مع بعضـها كترابط أجزاء الشجرة وتدرجهـا وتفـاعلها من جهة أخرى، ومن الطبـيعي أني كنت أستنـد في ذلك أيضـا إلى القرآن الكريم، وأبذل لهـذا وذاك جهـدا جهيـدا، وكنت أتصـور أن بذلـك يقوم الـدين المتقوِّم بالكتاب والسـنة، غفلة عن أن ذلـك الجهـد سـيظل عقيما، بل وأن الفهم نفسـه يبقى متكلّفـا لعـدم اعتمـاده الولايـة، كمـا أشرت إلى ذلك في تعليقة سابقة...

الفهم المتكلَّف... :

مـن أمثلـة فهمي للديـن بمعزل عـن الولاية: أنـي كنت أتصور أن قـول اللّـه عـزّ وجـلّ: « كُنتُـمْ خَيْـرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاس... » تشـمل المسـلمين الآن أيضـا وتعتبرهم خير أمـة كمـا كانت في حيـاة النبي صلى اللّه عليـه وآلـه، ومعنى ذلـك أني في فهـمي للآيـة المذكـورة لـم أنتبه إلى مـا كان للنبي (ص) مـن ولاية فعلية علـى النـاس بمـا فيهـم المنافقون، شـأني في هذا الفهم شـأن عامة المسـلمين بما فيهم المفسـرون الشـيعة...، وحينما عرفت الولاية وموقعهـا مـن الديـن علمـت - فيمـا علمـت - أن المسـلمين لا يكونـون خيـر أمـة إلاّ بولايـة، هـذا حتـى لو لـم يكـن هنالك نص

يشير إلى أن الأمة في الآية هي (الأئمة)، كما في كتاب البحار (٢٤/ ١٥٤) وغيرها

فهم انسيابي مريح

إن هذه البصيرة لا أنها أراحتني فقط من التكلف في محاولة تصور المسلمين (خير أمة) الآن بل في اعتبارها مجرد (أمة)، بل قد نظّمت فهمي للدين ومسائله عامة وجعلتني أراها مترابطة متعاضدة منسابة إلى غايتها بلا تكلف، كما أجابت على كثير من التساؤلات التي لم أكن أجد لها إجابات وافية، فكنت أصبر عنها بناء على أن المقدار الذي أعرفه يكفي ليجعلني أقتنع بإطار الدين ووجهته فلا يضرني جهلي بالمسائل التي أعلم إجمالا أنها لو لم تؤكد الصورة الموجودة فإنها لا تصطدم مع أساسياتها

× × × × × × × × × × × × × × ×

الإنسان موجود ولائي (لا ذهني)

ومهما كان من أمر فإني أؤكد هنا أن أهم باب قد فتحه لي مبدأ الولاية هو ما أوصلني إلى فهم الإنسان بصورة مختلفة عن السابق: كنت أتصوره موجودا عقليا (ذهنيا) بحتا يكفيه الفكر ويهديه وإن كان فردا، بل يجب أن يكون فردا مستقلا وإن كان مع

الناس... فاكتشفت على ضوء الولاية أنه موجود إمامي بفطرته لا يهتدي إلاّ بإمام وولاية، وكذلك أخذ اللّه على الناس الميثاق وهم ذرّ كما أشار إلى ذلك ما في (١/ ٤١٣) من الكافي، وغير ذلك من النصوص...، بل وجدت أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر بحرية إلاّ بولاية صالحة، أي أنه لا يكون حرا إلاّ بها كما هو مجرب وملاحظ، وقد وضحت ذلك في فقرة سابقة

كان هذا الفهم من أبرز مظاهر الرؤية التي دلني عليها بهذا الصدد مبدأ الولاية الذي كان لتجاربي الفاشلة التأثير الأساس في اكتشافي له واهتدائي إليه كمفتاح الأمر وباب الأشياء، وبتبلور هذا الفهم وصلت إلى ما لا يخفى من أسلوبي الذي رآه كثيرون مغايرا لطريقتي القديمة، وأنا أراه موجِّها وهاديا ومكمّلا لها ومالئا لثغراتها ومنشطا لها، وإلى القارئ بعض التوضيح لهذا الأمر المهم فأقول:

طرح الفكر بلا ولاية سهل مستسهَل

لم يكن صعبا عليّ الحديث لما كنت أنظر إلى المستمع كموجود عاقل (مفكر) فحسب، وذلك لأن ضوابط الفكر النظري الذهني معروفة بإجمالها فيتيسر فهمها لمن يهتم بها كما تشهد به المحاولات المعروفة بـ(المنطق) وإن لم تكن ناجحة، ولم

أكن أعــاني كــثيرا في استنــباط فكرة من آيــة قرآنيـة أو روايـة أو الحصـول عليهــا بطريـق لا يرفضـه الديـن...، كما لم أكـن أواجه عقبات مستعصيـة في طريقي إلى تنظيم الأفكار وهدايتـها باختـيار أحاديث دينية خاصة للإجابة على مسائل فكرية فعــلية، أو لإثارة مسـائل معيّــنة تدفع الفكر إلى الأمام في مســاره المفترض، الأمر الـذي كنت أكتفي بـه لهداية المسـتمع عادة

التكلف في العمل

بلـى، لقــد كنـتُ أعانـي مـن التكلـف فـي اسـتنباط الأفـكار وتنظيـمها ولكني كنت أتغـاضى عن ذلك وأتحمل مشقّته باعتـباره ممـا لا بـد منـه في الفكر سـواء أكان دينـيا أو فلسـفيا عاما، ولكن بمـا أنـي لـم أكـن أسـتهدف الفكـر للتــداول الذهني، بـل للعمل (أي التــديّن)، كان مـن الطبيــعي أن أعاني مـن التكلف في العمل بدرجـة أو أخرى...، وكلما ازددتُ دُنوًّا من مبدأ الولاية وإحساسا بها ازددتُ تشـخيصا للتكلف وإحساسـا بــه ومعاناة منــه لا فقط فـي تطبيـق الفكـر والعمـل وفــقه، بل وفـي أصل الفكـر أيضا كما أشـرت إليـه فـي التعليقـة (٤) وفي هـذا الفصل أيضا

أخوة إيمانية متكلفة!

أعود إلى سـهولــة طرح الـفكر بــلا ولايـة فأقول: كمـا كنتُ

أستســـهل الـــفكر وتجهيـزه،كان يمكنني أيضـــا التـــأكد بســهولة مـن أثـر الحديـث فـي المسـتمع إذ كان يكفـي لذلك رصـد كلامه الـذي يعبـر عادة عن مـدى فهمه للأفـكار المطروحة ومـدى تقبله لهـا، ولـم أكـن أطلـب أكثر من ذلـك، فمـن وجدته كذلـك حدثتُه وتفاعلـت معـه وارتبطـت به واعتبرتـــه أخًـا في الدين، غفـــلة عن أن الأخـوّة الإيمانيـة ليسـت مجـرد رابطـة بيـن شـخصين تتشـابه أفكارهمـــا الدينـــية، بل ولا بين أناس متفـــقين في طريقة التفكير، وإنـــما الرابطة القائمة بين أشـخاص مؤمنين بأمر مشـترك ومتولين لإمامـة واحـدة ومتقربيـن بها إلـى اللّه

الولاية صعبة مستصعبة

ولكـن حينمـا تبيّـن لـي أن مـا يهتـــدي بـه الإنسـان إنمـا هـو قلبـه لا ذهنـه، وأن فكـره لا يمكن أن يهتـــدي إلاّ عـن طريق هداية قلبـــه، فـإن اهتـدى وآمـن اهتدى بتبـع ذلك فكـره واتجـه الاتجاه الصالـح، وإن ضـل قلبـــه ضلّ بتبـــعه الذهـن، فإمّا هـام الفكر في كل وادٍ، أو اتجـه اتجـاه شـهوة مـن الشـهوات... فلمـا تبيّـن لـي ذلـك أصبـح عملـي صعبا لا فـي اختيـار الأحاديث المناسبـــة فإن أحاديثـي السابقـــة كانت مناسبـــة بشـكل عـام لهدايـــة القلب وإن كانـت ناقصـــة، بل في صياغتهـــا صياغـــة تدخلهـــا القلب لا عن طريـق العاطفـــة بل عن طريق التعقل، وكذلـك في طريقة الحديث

والتعامـل مـع المسـتمع حيـث بـدأت أشـعر بـأن عليّ مسؤوليـة تجاهــه أكبر مما كنت أتصور، وزاد هــذا الشـعور ثقلا على قلبي أن فـي المسـتمعين مـن لا يـكاد يتفهـم أن مـا أفعلـه إنما هـو ناتج عـن شـعوري بالمسـؤولية تجـاه الحديـث والمسـتمعين فيتصوره تدخـلا فـي شـؤونهم وتقييـدا لحريتهم

أجـل بمقدار ما كان ذلك الاكتشــاف عظيما، كان العمل وِفْقَه صعبا حيث كان يتطــلب موازنات دقيقــة جــدا، فـإن الولاية كما أنها تؤثر على الحرية إيجــابا وتســاعد على تحققــها في النــاس كــذلك تؤثـر عليهـا سـلبا فتسـلبها عنهم، فلابـد أن تكـون الولاية بحيـث تؤثـر الحريـة وتبلورها وترسخــها بدل أن تؤثر فيها سـلبا، بـل وأن تحميهـا عـن التأثـر بولايات منافيـة للحرية، وهـذا بحاجة إلـى كثيـر من الدقـة والحذر

× × × × × × × × × × × × × × × ×

تلـك هـي تجربتي ومـا تمخضّتْ عنـه، حاولت الإشـارة إليها أمـلا فـي أن تكـون نافعـة لطالب العلم إذا كان منتبــها إلـى أنها لا تـكاد تكـون إشـارة معبّـرة عـن واقع التجربـة كما حدثـت فإنها قد تدرجـت عبـر حوالـي أربعيـن سـنة، وكانت شـجونا جدا، فلهــذا وذاك وغيرهمـا لا يمكننـي اختزالهـا بل ولا اسـتــذكارها إلاّ بكثير مـن الخبـط والقفـز والخلط بين الأسـباب والمسببـات، كمــا أن

التجربة في نفسها قد شابها كثير من التخبط لا فقط بسبب الغفلة والجهل، بل وأيضا بسبب الضعف، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه...

الأئمة (ع) بلحاظ مقاماتهم و...

لا يخفى أن المقصود الأساس هنا لم يكن الحديث عن ولاية الأئمة عليهم السلام وإمامتهم فيما يرجع إلى مقاماتهم عند اللّه عزّ وجلّ ومناقبهم وفضائلهم، فإن الإمامة بهذا اللحاظ « أجل قدرا وأعظم شأنا وأعلا مكانا وأمنع جانبا وأبعد غورا من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم... » كما في الكافي (١/ ٢٠٠) عن الرضا عليه السلام، فهي ليست مما يُتناول في مقال، بل هي مما لم يكلفنا اللّه به كما في الكافي (١/ ١٦٣) عن الصادق عليه السلام: « إن اللّه احتج على الناس بما آتاهم وعرّفهم »، وكما في الكافي (١/ ١٦٤) أيضا عنه عليه السلام: « ما حجب اللّه عن العباد فهو موضوع عنهم »، فيكفي بهذا اللحاظ العلم إجمالا بأن لهم (عليهم السلام) عند اللّه مقاما عظيما، ثم تصديق ما ورد عنهم (ع) من تفاصيل مقاماتهم وفضائلهم...

الأئمة (ع) بلحاظ كونهم وُلاةً وأئمة

وإنما أردتُ الإشارة إلى ولايتهم وإمامتهم في الجانب الذي

كان اللّـه قـد كلّـف بـه الإنسـان بعـد أن عرّفـه وآتاه القـدرة على العمل به، فهي بهـذا اللحاظ ليست غريبة خارقـة، بل مما يعرفه النـاس باعتبارهـا من نمط الولاية التي يمارسها النـاس بأنفسهم فـي حياتهـم اليوميـة لا فقط فيما يأمـرون وينهـون ويدْعون... بل فـي كل مـا يقومـون بـه مـن التصـرف بتوجيـه شـيء وسـوقه إلى جهة مـن الجهات

أجـل إن ولايـة الأئمـة عليهم السـلام بلحاظ ارتباطهـا بالناس هي من سـنخ ما يمارسـه الناس ولكنها مهتـدية في نفسـها وهادية و(**إمام**) لغيرهـا، ولولا أنهـا كذلك لما عرفوها ومـا لم يعرفوها لم يتطـلعوا إليهـا، ومـا لم يتطلعوا إليها لم يهتـدوا بهـا، إذ لا يُكَلِّفُ اللَّـُه نَفْسًـا إِلا مَا آتَاهَا

××××××××××××××××

حجب الحديث لا ينافي الحرية

ومـع غـض النظـر عن كل ما ذكـرتُ في هذا الفصـل والتعليقة (٤)، وبناء على أن الحرية ليست إلا ما يتصوره العامّة، وأن الإنسـان يسـتطيع أن يـكون حـرًّا بنفسـه، وأنه لا يحتـاج في ذلـك إلى أيّ عـون، بـل وأن الإعـانـة تضـرّ حرّيتـه... فإنـي لا أجـد تلازما بين (الدعـوة إلـى الحريـة) وبيـن إذاعـة الحديـث، ولا أرى أن حجب أحاديثـي الدينيـة عن أحد يضرّ بحريته ولا بحرّية الذين يسـتمعون

لـي مـا دمـتُ لا أجبرهم علـى الاستــماع، ولا أفـرض عليهم قيدا رغمـا عنهـم، فإنـي لا أرى (التقيـد) منافيـا للحريـة إذا كان برغبـة وإرادة حـرة، بـل أراه ضروريـا لتحقيـق الحريـة ومجسـدا لهـا... والـذي ينافـي الحرية هو القيـد المفروض على أحد إما بصراحـة ووضوح، أو بمكر وخداع مقصود، وهــذا ما أحاول تجنبه إن شاء اللّـه، أو بطريـق غيـر مقصود وهـذا ما أعـوذ باللّه منه

الهدف من المقال ليس المنتقِد، بل...

ولا يفوتني هنا التـأكيـد على أن مـا أشرت إليـه في التعليقتين: (٤) و(٧) إنمـا استهــدفت بــه طالـب العلـم، فإنــه الوحيد الذي قــد يجـد فيـه ما يدلـه على بعض ملامـح الحق، أو يبصـره – على الأقـل – بطريقتـي فـكان على بيّنــة فـي الاقتراب منـي أو الابتعاد عنـي، وأمـا المنتقـد فإنـي لـم أسـتهدفه في هـذا المقطـع بالذات، وأكـرر مـا ذكرتـه في البـدء وهو أني سـوف لا أتجاوب معـه ما لم يستــطع الانكشـاف، بل وما لـم ألمس تغيرا جذريا فـي تعامله مع المسائل...

---

(٨)ـ تكرار وتكرار!

لأنـي وجــدتك تكـرر كلمـة (متابعة المسـتمع) وتركـز عليها

أراني بحاجة لأكرر التأكيد على أن ما أفعله ليس في واقعه متابعة للمستمع، بل متابعة أثر حديثي عليه حسبما يفعله أي إنسان مهتم بكلامه بدرجة أو أخرى، ويكفي لهذه المتابعة ما يظهر لي من اهتمام المستمع بما أهتم به وأركز عليه في أحاديثي...

هدف معروف وطريقة مكشوفة

ومن جانب آخر فإني لا أستهدف بالابتعاد عن أحد أن أجعله (يعود إلى رشده)، ويكفي سببا لذلك أني لا أخطط للناس ولا أتصدى لأحد، تطبيقا لما أعتقده من أن الدين لا إكراه فيه، وأن التديّن لا يكون إلاّ بالطلب وبرغبة شخصية، ولذلك أمتنع عن التحدث إلى من لم يظهر لي أنه راغب بنفسه في طلب الدين، وهذا معروف من أسلوبي وطريقتي في التعامل مع الناس، كما أن هدفي معروف، فكيف خفي عليك ذلك؟!

أدعو إلى حرية النيّة

أجل إن هدفي معروف وطريقتي صريحة من خلال تعاملي ومن خلال أحاديثي حيث أدعو إلى الحرية وأذكّر المستمع باستمرار بأن (حرية النيّة) مما لا بد منه في التدين، وأبيّن له ما أعرفه من أن نية الشخص التي هي أساس دينه لا يملكها غيره، وأن اللّه إنما يحاسبه بها، وأحذره من الغفلة عنها وأذكّره

بما أعرفه من العوامل المؤثرة على النيـــة. وبكلمـــة مختـصرة: إن مـا أقـوم بـه هو التعــليم والتبصيـر وأن يكون لكل امـرئ نوره...، وأن لا تـزر وازرة وزر أخرى

إعلان وتأكيد

إني أغتنم هــذه الفرصـــة أيضــا لأؤكــد ذلك الأصل وأقول: إنـي أدعـو إلـى حريـة النيات كمـا أشـرتُ إليه فـي أكثر مـن مورد مـن هـذا المقال وأن أحـب الناس إليّ أملكهم لنيّته وقراره شـريطة أن يكـون مؤمنـا، وأن مـن أبعــد النـاس عنـي مـن كان خاضعا في نيّته وقـراره لغيره...

××××××××××××××××

لابد من متابعة أثر الكلام...

إن مـا ركزتَ عليـه من متـابعتي لأثر حـديثي على الأشـخاص ليسـت بأكثـر من ملاحظة طبيعية منتشـرة بين النـاس، فمن أراد أن يطـرح علـى أحد أمـرا مهما عزيزا فإنـه يرغب ويتمنى أن يهتم بــه المسـتمع، فلابـد أن يلاحظـه ويتابع أثر كلامه عليه ليكتشـف مدى اهتمامـه بذلـك الأمـر المهــم وكيفية تفاعلـه معه، فلو لـم يجد منه الاهتمـام المطلـوب حاول جعله يهتم، وإلا تركه وشـأنه

كذلك يفعل الناس

أجل إن ما أقوم به من متابعة أثر حديثي فيمن يستمع لي ليس أمرا استثنائيا، فإن ذلك ما يفعله كل من يهتم بعمله، ولا أظن المرء بحاجة في ذلك إلى نص خاص كقوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) بل والمتابعة في التعليم شائعة جدا بحيث لا تعليم إلاّ بها، وليس لي تعليمات خاصة أؤاخذ الناس بها، فكل ما لدي هو الحديث الديني المكشوف الذي أستهدف به التديّن، ولا أنكر أني أقترب ممن أراه مثلي في المعرفة والاعتقاد والإيمان، ولا أجد هذا غريبا حتى لمن لا يعرف الولاية وأثرها الخطير...، فإن كل مؤمن يحب الأكثر إيمانا حسب فهمه للإيمان، بل وإن كل معلم يقترب أكثر من أشد طلابه اهتماما بعلمه...

ليتك رسمت لي طريقة واقعية للابتعاد عما لا ترتضيه من طريقتي، فهل ترى من الواجب عليّ أن أعامل جميع الناس على سواء بأن أقترب من الجميع أو أتجنبهم بلا فرق؟ أم ماذا؟...

---

(٩)ـ التباعد أم التواصل

أنا لا أتفاعل مع من يريد إرضائي إلاّ أن يكون راغبا في

مـا أستهــدفه، وأرانـي كغيـري قـادرا علـى تشـخيص الراغب من المتكلف..

هــذا، ويبــدو أنك تفترض أن الأصل في العلاقــة المطلوبـة بيـن المتحــدث الدينـي والمسـتمع هـو (التباعـد والتدافـع) – أو عـدم التواصـل – ، بـل وتـرى أن العلاقـة الطبيعية بينهمـا لا تكون إلاّ كذلـك، ولذلـك ترى أن إرضاء المسـتمع للمتحـدث لا يمكن أن ينتـج عـن رغبـة وحـبّ، وأنـه لو حـدث ذلـك فهو ممـا يتكلفه المستمع

لا أريد أن أقول هنـا: إن العلاقة المطلوبـة – بل الطبيعية – بين المتحــدث الــديني والمستمع باعتبارهما مؤمنَين على الأقل إنما هي (**التعاطف والتحابّ والتراحم...**)، ولكني أسـألك قائلا: لو أني استسـلمت لـك وللذيـن يطالبوننـي بالتحـدث (الحرّ) فقـررتُ أن لا أمنـع حديثـي عـن أحد، ثـم حـدث أن أخطأ بعض المسـتمعين الحيـاد المطلـوب الـذي تفترضـه فأحبنـي، فقام بما جسّـد حبه لي بشـكل أو آخـر، فمــاذا ترى عليَّ أن أفعـل لمنع ذلك؟

---

(١٠)ـ التكلف لا ينتهي إلى النفاق

ليـس التكلـف مما يصـل إلى النفـاق الذي هو إظهـار الإيمان

وإبطـان الكفـر، فإنهمـا طريقتان مختلفتان لا تلتقيـان... وأظنّ هذا واضحا لمن تدبّر المسـألتين

(١١)ـ لا أدري مـا هـي تلـك الروايات، فإنك أبهمتهـا ولم تشر إليهـا ولا إلى مصادرهـا، ووددت أن لا تلقي عهدة حكم عام ومبهـم إلى بعـض الروايات المجهولـة وأنت بصـدد الإشـكال والإفحـام، ثـم وإنـك لـم تذكر مبنـى حكمك القـاطع بـأن متابعة المسـتمع يوجـد فيـه تكلفـا...، وأظـن أنـك انطلقت فـي ذلك من تجربـة شـخصية أو مضافا إليهـا بعض التجارب الأخـرى، فهي لا تكفـي لحكـم عـام، وإنـي كعيّنة من النـاس لا أجد مـا وجدتَه أنت فـي هـذا الصـدد، حيـث أنـي حينما كنت أسـتمع لمتحـدث ديني وددتُ أن يرصـد أثـر حديثه عليّ، وكنت أعتبر ذلك دليل اهتمامـه بـي، وكان ذلـك يدعوني إلى الاهتمام بـه وبحديثـه وإلى مزيد من النشـاط للاستفـادة منـه، ولم يكن يوجِد فيّ التكلف، ولا أبرئ نفسـي من درجة من تكلف طبيـعي لا يخلو عنه أحـد في حركته وإن كانـت حـرة خصوصا في مقـام العمل والتطبيـق الخارجي، إذ مـن غيـر الميسـور دائمـا التفريـق بيـن ما هـو تكلف وبيـن ما هو جهـاد لا بد منـه، خصوصـا للذُّل على المؤمنين والكون معهم

هـذا إذا كان مراقبـة المتحـدث (لأثـر حديثه علـيّ) لأجلي

وكنت أحب حديثه ومتابعته، وأما لو لم أكن أطلب حديثه أو لم أرغب في متابعته لي فإني لم أكن أتكلف إرضاءه، بل أترك الاستماع لحديثه، اللّهمّ إلاّ أن أكون بحاجة إلى حديثه لا للهدى بل لغاية أخرى، ولم يكن الرجل مؤمنا، فإني كنت أجامله إذَنْ...

متابعة المستمع لا تستلزم تكلفه

وحتى لو لم تطلع على ما ذكرتُه من تجربة فإني لا أظن أحدا يستطيع التأكد من أن متابعة المستمع يوجد فيه تكلفا في التصرف، فإن تصرف امرئ بطريقة معيّنة لا يدل دائما على أنه متكلف إذ قد يكون ذلك التصرف ناتجا عن رغبة واعتقاد وحب، وإني أضرب لك مثلا: أفترض أن (زيدا) يتقرب من (علي) ويتودد إليه ويقوم بخدمته، وأفترض أن لـ(علي) جاها يجذب كثيرا من الناس، وأفترض أنه مؤمن أيضا، فإن الحكم على نيّة زيد من تصرفاته يختلف باختلاف الأشخاص، فمن نظر إلى علي كصاحب مكانة مرغوبة فقط فإنه يحدس أن زيدا يتحذلق بتكلف ما لا يحبه، وقد يقفز من مجرد الحدس إلى الحكم القاطع بأن زيدا كذلك، بل وقد يطرحه كقاعدة عامة فيقول مثلا: « كل من تقرب من علي فهو متحذلق »، كما – ومن جانب آخر – قد يوجه اللوم إلى (علي) بما له من مكانة معتبرا إياه السبب في تكلف الناس الاقتراب منه...

وفـي المقابـل هنــاك مـن لا يلتفـت إلـى جـاه علـي بـل ينظر إلـى كونـه مؤمنـا، ويحمـل فعل زيد علـى أفضل الوجـوه وهو أنه يفعـل ذلـك حقـا وصدقـا، أو لا يحكم عليه بشـيء إلى أن يسـأله، فمـا أجـاب به على سـؤاله قبِـل قولـه وصدّقه

... لم أظنك جادًّا

ومهمـا كان مـن أمـر فإنـي لا أظنك جـادًّا في حكمـك بأنه قد تصـل حالـة التكلف في بعــض مراحلهــا إلى النفـاق...، حتى لو بالغـت مبالغة غريبـة وتصورت لي موقعا رهيبـا مخيفا يمنع الناس عـن خلافـي، فيضطرون للتظاهـر بالتدين خوفا

لا علاج لهذا التكلف...

ومـع ذلـك كلـه أعترف بـأن هناك تكلفـا بدرجـة أو أخرى في تعــامل البعض معي، بل ولا أنفي أن هناك تديّنــا متكلفا، ولا أنكر أن لأســلوبي الجاد تأثيرا فيما يتكلف بــه معي، وأعلم إجمالا أن هنـاك طريقـة أفضـل من أسـلوبي لو سـلكتها خفّ بذلـك التكلف وقلّ المتكلفون، ولكني لست متمكنــا من تلك الطريقــة، بل أرى أنهـا غيـر ممكنة تماما لأحــد في الحال الحاضـر على الأقل، فمن ركـز فـي ترويـج الدين على الجـدّ فلا بـد وأن يتوقع نفـورا وطعنا وتهجمـا من جهـة، و تكلفا من جهـة أخرى...

لا أبتغي المتكلفين

ومما أعزي به نفسي في هذ الصدد ما هو معروف عني، و كما أشرتُ إليه آنفا، من أني لا أتفاعل مع من يتكلف رضاي في حركته بل وأزدادُ ابتعادا عنه وحذرا منه، ولا أظن التكلف خافيا على العارف بالأمور ومعالمها وأبوابها

المجافاة، أم ماذا؟

هذا، ويبدو من انتقادك أنك تفترض المستمعين فاقدي الإرادة والاختيار، فترى أن اهتمامهم بالحديث واقترابهم من المتحدث إنما هو تكلف منهم نتيجة قيد مفروض عليهم، ولا تحتمل أن يكون ذلك حركة طبيعية ناتجة عن اختيارهم الحرّ وممارسة لحريتهم، فكأنك لا تعتبرهم أحرارا إلاّ بمخالفتهم للمتحدث وعدم مشاركتهم له في أمر وافتراقهم عنه!، بل ويتراءى لي أنك لا ترى المستمع حرًّا غير متكلف إلاّ بأن يظهر لك أنه لا يحب المتحدث...

---

(١٢)ـ لا خطورة فيما ذكرتَ

على الرغم من أني لا أتصورك جادًّا في (قياسك) بل وحتى في افتراضك الموقف المذكور من أساسه، ولكني أجاريك وأقف

معك للإشارة إلى أسس فكرية أراها نافعة لطالب العلم (إن شاء اللّه) فأقول: إنك لم تذكر دليل حكمك بخطورة الموقف المذكور، ولم تحدد الذي يتجه الخطر إليه فهل هو نفس الإمام المفترض، أم الناس، أم الدين؟

ليس كل غريب خطرا

أفترض أنك حكمت بها لكونه غريبا، ولكن غرابة أمر لا تدل على أكثر من أنه غير مألوف، ولا ملازمة بين أن يكون شيء صحيحا وبين أن يكون مألوفا ومتعارفا، وعلى فرض الملازمة فإنها إنما تكون بين غرابة الشيء وبطلانه، لا بينها وبين خطورته، فهناك ما هو غريب وباطل ولكنه غير خطر

ولعلك حكمت بخطورة الموقف لتصورك أن ذلك سيربك الناس ويوقعهم في حرج من جهة الصلاة، أو أن ذلك قد ينتهي إلى انقطاع صلاة الجماعة...، ولكن هذا الافتراض غير صحيح فإن بإمكان الناس أن يقاطعوا الإمام المذكور ويصلوا مع أئمة آخرين وهم كثيرون، بل وأن لا يبالوا بمنعه فيستمروا في الصلاة خلفه إن كان عادلا، فإنه لا يشترط رضى إمام الجماعة في الائتمام به، وإذا عاند وتصدى للمصلين خلفه فإن متولي المسجد سيقوم بمنعه عن ذلك أوتبديله بإمام آخر، إذ لا يحق له المنع ما دام إماما راتبا وظيفته الإمامة في المسجد

إذن لا خطـر مـن ذلـك إلاّ علـى نفـس الإمـام حيـث يبقى بلا مأمـوم أو يُـزاح عـن موقعـه إذا كان ممـن يهمه ذلـك، ولا ضير فيه علـى الدين أو المسـلمين...

لا خطر في إبداء الرأي...

هــذا إذا افترضـتَ الخطـر فـي موقف الإمـام المذكـور، وأما إذا كنـت قــد افترضـت أن الـرأي المذكـور فـي نفسـه خطـر وإن لـم يسـتتبع موقفـا، فإنـي أطَمْئنك أن ذلك لا يضر شـيئا، شـأنه في ذلـك شـأن كثيـر مـن الآراء الشـاذة التي يسـمعها المـرء أو يقرؤها هنا وهناك، كمــا وأني أرى أن مقتضى الحريــة هو أن لا يُتصــدى لأحــد فـي رأيــه ما لـم يبطل حقـا معروفا، فهـل ترى هـذا الرأي خطِـرا كذلك؟

---

(١٣)ــ من التقية ما هو (دِينٌ)

لـم تكن (التقية) خاصــة بالأئمة عليهم الســلام وبزمنـهم، بل هـي دينــهم ودين المؤمنين عامــة، بـل وإن التقية بمعنـى (الحذر الدينـي) مطلوبـة الآن أكثر ممـا كان في عهد الأئمة عليهم السـلام كمـا في (الكافـي:٢/ ٢٢٠) عن أبي عبد اللّه عليه السـلام أنه قال: « كلمـا تقـارب هذا الأمر كان أشـد للتقية »

هــذا، ومـع ذلـك صحيـح أن في روايـات (باب الكتمـان) ما هـو خـاص بهم عليهم السـلام، ككثير ممـا رواه الكلينـي (ره) في بـاب الإذاعة مـن الكافي

---

(١٤)ـ التبويـب لا يدل على ما ذكرتَ، كما لا يُقـلّد الكليني (ره) وغيـره مـن مؤلفـي الأخبـار فـي آرائهـم وإن كانـت صريحة، ولا ينافـي ذلـك مكانتهـم العظيمـة، ولا يخفى هـذا وذاك على من لـه إلمام بهـذا النمط من المسـائل

---

(١٥)ـ لا يكون اعتقادٌ إلا بإرشاد

لا أدري مـاذا تقصد بالأوامر الإرشـادية، فإن كنت تقصـد بها معناهـا المعـروف، فـإن فـي تلـك الروايات مـا ظاهرهــا مولوي، كالــذي رواه الكافـي (٢/ ٢٢٢) عـن أبـي جعفـر عليه السـلام أنه قـال: « ... ولا تبثـوا سـرّنا ولا تذيعـوا أمرنـا... »، وغيـره، بل وإن النهـي الـذي تضمنتـه الرواية التي ذكرتهـا أنت مولـوي أيضا، ولو سـألت مـن لـه إلمـام بهذا النمـط من المسـائل لأخبـرك بذلك...

قلـت هذا جـدلا ودفاعـا، وإلا فـإن تعاملي الأسـاس مع تلك الروايـات ليسـت معاملـة مولويـة، بل للاسـتفادة منها كمؤشـرات عقائدية وإن كان ظاهرهـا أمرا أو نهيا مولويا، ولم أطرحها للمناقشة

بلحـاظ كونها سنـــدا لحكم شـرعي فـإن مناقشتهـا كذلك تتطلب تخصصــا فـي الفقـه، وإنما لألفت الأنظــار إلى مفهومهــا لأجل الاعتقــاد، الأمر الــذي لا بد منه للمعرفة، شــأنها في ذلك شـأن النصوص الدينـــية الأخـرى التي أذكرها عادة للمســتمع...

هذا، ومع ذلك لا أنكر أني قد أستفيد من الروايـات المذكورة (منهجا للعمل) أيضا بتفصيل لا مجال له هنا إلاّ بالإذاعة...

---

(١٦)ــ أنـا لـم أفهـم ذلك من عنـوان الباب بـل اطلعت على روايـات باب الكتمان وغيره، فإن روايات الكتمان ليسـت مقتصرة علـى مـا فـي هذا الباب، فمثـلا إن الكليني (ره) قـد روى في كتاب العلـم (١/ ٥١) رد الإمـام الباقر علــيه السـلام على زعم الحسـن البصـري بشـأن كتمان العلم، كمـا وأن أمير المؤمنين عليه السـلام قـد أشـار إلى ذلك فـي خطابه لكميـل... الخ

أرجو وأتمنى أن لا أكون بالإشـارة إلى الروايتـين قـد جعلتهمـا عُرضـــة للخـوض والإبطـال ووسـيلة للتخاصـم والتغالـب، فإنها قيلـت لغير ذلك

---

(١٧)ــ لا أدري ماذا تقصد بهـذه الكلمة، فهل تقصـد – مثـلا – أن ما رواه الكافي (٢/ ٢٢٢) عن الصادق عليه السلام أنه قــال:

« يـا سـليمان إنكـم علـى دين من كتمـه أعزه اللّـه ومن أذاعـه أذله اللّـه » ليـس إلاّ مجرد تذكير بما يحصل في حيـاة الناس العادية؟

ليتـك أردتَ أن تقـول: إن تعبيـر الأئمـة عـن أمرهـم بالسـر، والأمـر بالكتمان، والنهي عن الإذاعة كمـا فـي الكافي (٢/ ٣٧٠) عن الصادق عليـه السـلام أنـه قـال: « المذيع حديثنـا كالجاحد لـه » ليسـت طريقـة اسـتثنائية بـل ما يقـوم بهـا الناس فـي حياتهم الطبيعيـة، فـإن أحدهـم إذا اهتـم بأمـر وأعـزّه خاف عليه وصانـه، وإذا عرضـه علـى أحـد ولـم يجد منـه اهتماما أعرض عنـه، وهذا مـا نحـن نركـز عليه فـي فهمنـا لهذا النمـط مـن الروايات

---

(١٨)ــ لا عـلاقة للفتويـين بوجوب أو استحبـاب نشر الحديث ابتــداء، وهما تعــالجان مســألة متعلقة بكلام منشـور في مقال أو شـريط قد أصبـح ملكا لأحد بطريقة أو أخـرى، فله أن يتصرف فيه كمـا يشـاء، ولا حـق لأحـد منعه عن ذلك إلاّ أن يكون قــد شـرط عليـه ذلـك حين نقـل ملكية المقال أو الشـريط إليه...

ثم إنه كمــا لا علاقة للفتويين بمســألة نشر الحديث أو حجبه لا علاقة لهمــا بأصل الإباحــة كــذلك بشرح أراني في غنى عنــه الآن، ولو شئت معرفــة ذلــك ولو لأجل الجدل فبإمكانك سؤال مـن هو ملـمّ بهذا النمط من المسـائل، وهـم كثيرون

---

(١٩)ـ وإنـي أشــاركك الدعاء وأرجو أن يجمعنــا اللّه على هـدى نعرفـه ونتبعه معـا فنسـتطيع أن نكون بذلك إخوانـا متحابّين متعــاونين يشـد بعضنا بعضا وينصره ويسـتر عورته... وليس ذلك علـى اللّـه بعزيـز، إنــه علـى كل شـيء قدير، وإنـه كان بنـا رحيما وبضعفنـا بصيرا

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

محمد علي الباقري

٣/ رجب / ١٤٢٠

نص رسالة...

بسمه تعالى

السلام عليكم

فكرت في حديثكم حول التميز، وتبيّن أن الرغبة في التميز موجودة في كل إنسان، ومجسدة بصورتين الأولى في ما هو منتشر بالعالم من سعي للتميّز، والصورة الثانية هي كالأمثلة التي ذكرتموها من تعامل أصحاب الأئمة عليهم السلام، فكرت في شخصيات غير دينية تذكرونها أحيانا كشاهد على أن من تصبح له قضية يكون متواضعا ورغبته في التميز تكون لخدمة قضيته، شعرت بأن الموضوع مهم ويتطلب سعيا جادا ليصبح الدين قضيتي الحقيقية.

(.....)

بســـم اللّه الرحمن الرحيم

هكــذا آمنت

مـا جاء في هــذه الرسـالة مثال لطريقــة التعامل مـع الحديث الديني الشائعــة، إني أحــاول أن أشـير إلى شـيء مما يرتبط بهذه المشـكلة لأتنفـس به ممـا أعاني منـه، و...، فأقول:

يبدو أن كاتب الرسـالة سـمعني أتكلم عن التميز فرآه صحيحا فشـعر بأنـه موضوع مهم ويتطلب سـعيا جادا ليصبـح الدين قضيته الحقيقيـة، ولا يُـدرى لِمَ لفت نظره الـكلام عن التميز؟ وكيف تبين لـه صـواب الفكـرة؟ ومـا الذي جعله يشـعر بـأن الموضـوع مهم؟ ومـاذا يقصــد بالضبـط (بالديـن) الـذي يتطلب منــه سـعيا جادا ليصبـح قضيتـه الحقيقيـة؟ ومـاذا يعنيـه من هـذه الجملـة؟ ولماذا عليـه السـعي الجـاد لذلـك؟، وكيـف يسـعى؟، ولماذا كتبـه لي؟، وأسـئلة أخـرى كثيـرة لا أظن إمـكان الإجابة عليهـا إلا بتكلف...

ذلـك لأنـه – كمـا بـدا لـي – أراد (فهم) مـا كنت قـد تكلمت بـه عـن الدين، شـأنه في ذلك شـأن جُـل الذين اسـتمعوا أحاديثي، لـولا كلهـم، فركزوا على المسـائل التـي نطقت بهـا ليفهموها قبل أن يعتقدوهـا، ولأنـي لـم أكن أهـدف إلـى تعليمها المسـتمع وإلا لحققت كل واحـدة منها وأثبتـّها ووضعتهـا في موضعهـا، فكانت

النتيجــة ما جربتــه من عدم حصولهم إلا على تصورات مبعثرة لا جامـع يجمعهـا ومنظم ينظمها ولا مقياس للتأكد من سـلامة شـيء منهـا...، فـإذا أراد أحدهـم التديـن بها أكـب على بعضهـا واعتبره الديـن المطلـوب، وبمـا أن ذلـك ليـس ممـا يهمنـي ولا أترصده، ولا يترتـب عليـه أثـر فـي الواقـع لأراه فـلا أعلم بأنه اسـتفاد شـيئا إلا بـأن يتكلف إخبـاري بذلك...

وبــما أني مدرك لخطر الفهم بلا إيــمان يثير ذلك فيّ الخوف كمـا روي عـن أميـر المؤمنيـن عليـه السـلام أنـه قـال (لكميـل): « بلـى: أصبـت لقنـا (أي سريع الفهـم) غيـر مأمـون عليـه – أي علـى علمـه (ع) – مسـتعملا آلـة الدين للدنيا، ومسـتظهرا بنعـم اللّه على عبـاده وبحججه علـى أوليائه »

وحتـى لـو وجدته لا يقصد اسـتغلال الدين، فحيـث أراه يركز علـى بعـض مـا سـمعه فيتضخم على حسـاب أمـور أخـرى، فإني أخـاف أن (يبـذره) ويضعـه فـي غيـر مواضعـه فيتشـوه بذلـك مـا (أرانـي) متعهـدا لـه وسـاعيا إليـه ومجاهدا به

ومهمـا يكـن من أمر الرسـالة فإني أحاول أن أشـير هنا سـريعا إلـى شـيء مـن الطريقـة التي آمنت بهـا والتـي أراها الوحيـدة التي يمكـن الإيمان بهـا، فأقول:

التركيز على (الفهم)

في بدايات رحلتي الإيمانية كنت متأثرا بالنظرة السائدة الداعية إلى التدين (بفهم الدين)، فلما كنت أقرأ القرآن الكريم كنت أحاول أن أفهمه فأدقق فيه وأرجع لذلك إلى التفاسير...

وطيّ رحلة مليئة بالعثرات والتخبط تبين لي بالتدريج أن ما أفعله لا يؤدي إلى إيمان، بل وحتى إلى فهم مستقر كما أشير إلى ذلك في (هكذا آمنت٢)، وأن ما اعتمده القرآن في هدايته للناس ودعا إليه النبي صلى اللّه عليه وآله هو (الإيمان)، لا (الفهم)، كما اتفق عليه المفكرون وتواصوا به...

كما قد وجدتُني كنت أتعامل مع أي كلام ديني أستمعه أو أقرأه، فإني وإذ كنت أدقق فيه لأفهمه بذهني فأقبله أو أرفضه...، كنت قد أتأثر به وأتفاعل معه، وأنجذب إلى أحسنه فأتبعه إن لم أكن أدقق فيه، وإلا لكنت أتوقف عنده فلا أستطيع المشي والاتباع...

ذلك قبل أن أعلم بالتجربة والملاحظة أن هذا هو ما فطرني اللّه عليه وأنه الباب الذي يؤدي بي إلى الإيمان، وعلمت ببحث مضنٍ أن هذا ما اعتمده الدين وحث عليه، ولم يدعُ إلى التدقيق في مسائله وفهمها، وأن ذلك لن يؤدي إلى الإيمان، وأن التركيز

على فهم المسائل الدينية يجعله هدفا بذاته وإن لم يُقصد ذلك، فيلتهي به عن الإيمان...، وأن الناس يعلمون ذلك بغريزتهم فإذا أراد أحدهم التدين فإنه لن يلجأ إلى هذه الطريقة حتى لو كان من القائلين بها نظريا، وإنما يسلك الطريقة الفطرية، ولكن بما أنها غير معروفة لكثيرين كان هنالك كثير من التخبط والتهافت...، ومن هنا كانت ظاهرة إقبال كثير من كبار العلماء على التصوف والعرفان كما ذُكر ذلك في (هكذا بحثت٢)

أجل، بعد كثير من المعاناة وطرق أبواب شتى، وبالتدريج، علمت أن فطرتي هي التي تدفعني إلى (الإيمان)، وأنها هي التي تدفعني إلى استماع الحديث الديني، وتجعلني أطمئن إلى ما أسمعه أو أقرأه أو أفكر فيه وأؤمن به فأعرف أنه الحق...، وبالتدريج اطمأننت إلى أن ذلك هو الطريقة الوحيدة لمعرفة الحق والإيمان به، وأن الطريقة العقلية التي تدعو إلى (فهم) الدين قبل الإيمان به لا تؤدي إلى شيء يُطمأن إليه...

فهم بلا تركيز

ومما وصلت إليه بالتدريج هو ما أشير إليه في (هكذا آمنت٢ - فصل المقال نوعان) من أن طالب الإيمان يعلم (بفطرته) أنه لا يحتاج إلى فهم جميع ما يستمعه واستيعاب تفاصيل ذلك، بل ويعلم غريزيا أن تدقيقه في ما يستمع يؤثر

سلبا على ما هو في صـــدده من الإيمان ويضره، فلا يستنــفر فكره لسـماعه ولا يدقـق فيـه، ويكتفـي بـأن يفكر فيــه بـلا تركيز خاص كمــا يفكـر في أي شـيء آخـر يهمه ويطلبــه بجد...، فـإن كان ما يسـمعه صالحـا لمح فيه ما يشـير إلى معالم سـبيل اللّـه الذي يؤمَن به ويُتبع، فاستبشـر واسـتمر في استــماعه كــذلك وازداد نشـــاطا وازداد بالتــدريج مـا لمحـه في البدء واشتــد وضوحـا وتذكيرا له بمعالـم ديـن اللّه فـازداد علمـا وإيمانـا وقياما به

وعلمت بالتجربة أن ما يبـدو (لغير الطالب للإيـمان) مستحيلا (مـن الجمـع بين الاهتمام الجاد بما يُسـتمع، وعـدم التدقيق في ما يُسـمع) يجعلـه ممكنـا، بل حقـا واقعا، هو حب المسـتمع للإيمان وطلبـه لـه، وأن ذلـك كما (يهديـه) إلى مـا يحقق له الأمـن فيعرفه ويتمسـك بـه هـو الذي يعصمه عـن التوغل فيما يلهيـه عن إيمانه

اتبـاع الـداعي

وعلمـت أن مـن أهـم مـا يجعـل (المؤمـن) قـادرا علـى تلك الموازنـة هـو ما تستوجبــه فطرته مـن دفعه إلى استـــماع الحديث الدينـي واعتمـاد المتحـدث واتباعـه إن وجـده مؤمنـا (كانـت لـه دعوة)، حيث يعلم – وإن لم يكن واعيا لذلك – بأنــه لن يستــطيع الإيمان بحديث أحد إلا بالكون معه...، وأنــه باعتماده المتحدث

واتبـــاعه له يستـــطيع المشـــي وإن لم يفهم بعـــض ما يقوله، أو لم يستحسنه، ما دام يعــلم إجمالا أن المتحدث مهتد فلا يضل معــه، وأنــه لا يســأل أجـرا فـلا يستــغله...، وهذا مما كنت أسعى إلى تذكيـر المستمع به ليكون مشيه بوعـي وعلم...

وتبــين لي أن من يسـتمع حديثـا دينـيا بلا أن يجد في نفسـه ولاية للمتحدث فيتبعه فهو إما يستمعــه لغايــة أخرى غير الإيمان كالحصول على أفكار دينيــة مثلا...، وإمــا يريد التــدين ولكن لا بطلـب (الإيمـان) واعتماده بـل بالطريقة التي يدعـو إليها العقليون والشــائعة جدا، وهي أن ما يســمع يجب أن يفهم أوّلا ثم يُعتــقد، فبمــا أن فهـم كلام المتكلـم لا يتوقـف علـى اتبــاعه، بل ينــافي ذلك...، فيرى أن له (بل عليه) أن يكون محايدا تجاه المتحدث...

اهتمام الداعي

هـذا، وممـا أرى أنه يسـاعد المسـتمع على اعتمـاد المتحدث واتبــاعه والمشــي معه هو علمه الغريزي بأن المتحدث سـيهتم به ويتعهــده، فلولا هــذا العلم لم يستـطع اعتماده واتباعه، فمن هنـا يتصدى الشيطان له (أي للمســتمع) ليجعــله (يركـز) على اهتمام المتحـدث بـه ولفـت نظـره إلـى نفســه، بدلا مـن (الإيمـان) الذي ينظـم اللّـه به أموره ويوفر ما يحتاجــه للهدى بصورة طبيعيــة غير متكلفــة، منه حاجتــه إلى أن يحبــه المتحــدث والمؤمنون، فهو

باهتمامـه بغريزتـه الضالة واتباعه لها لا فقط يخسـر حب المؤمنين له بل وينفرّهم، ويستـفز المتحدث فإنـه إن كان صالحا إنما يهـدف إلـى تكبيـر اللّـه في نفـوس مسـتمعيه ليجاهـدوا في سـبيله تعالى، فطمعـا فـي أن يصبـح مـن يسـتمع إليـه عونا له فـي ما يهـدف إليه إن رأى أحـدا أقبـل عليـه ليستـمع إليه استبشـر واهتم بـه إن ظهر منـه مـا يشـير إلى نجاحه في مسـعاه، وإلا شـعر بخيبة أمل شـديدة ظهـر في تعاملـه معه...

بـل وبمـا أن المتحـدث الهـادف المتعهـد لحديثـه مـن جانبـه يعلـم أن مسـتمعه لا يقـدر علـى الإيمان الـذي هو في صـدده إلا بكونه معه واتباعه له فهو يرصد مسـتمعه ويراقبه، فإذا لمح أنـه لا يتبعـه فظـن إمـا أنه لم يجد فيـه الإيمان الذي يتبـع، أو أنه لا يطلب الإيمـان، فلا يتفـاءل به ولا يتفاعل معه، ويخاف أن يتحدث إليه...

إشـارة وتأكيد...

وعلـى أي حـال فإشـارة سـريعة جـدا إلـى شـيء لا بـد مـن الالتفات إليه، وتأكيدا لما كنت قـد قلتـه سـابقا، أقول: إن المؤمن (أي طالـب الأمـن الحقيقي) إن سـمع كلامـا دله علـى طلبته آمن بـه ولا يبحـث عن شـيء آخـر إلا ما يرجو فيـه مزيدا مـن الإيمان، وما تدفعـه إليـه أيضـا فطرتـه من الاطمئنـان بأن مـا وجده ليس (وهْمـا) بـل هـو أمـن حقيقـي، فيبحـث عمـا يؤيـد مـا حصـل له

ويسنـــده، وهـــذا يجعـــله يطــلع (إجمالا) على وجـوه المقالات الدينيـة الرائجـة و(دعوتهـا)...، فلو لم يجد فيهــا مـا يلبي حاجته الفطريـة إلـى الإيمـان فإن ذلـك يزيده اقتناعـا بأن ما هـو عليه حق

الجهاد والجدال

هـذا، وإن المؤمـن بحاجـة أيضـا إلى الاطلاع علـى المقالات الدينية لغاية أخرى وهي (الجهاد) الذي يتطــلبه ويسـتلزمه إيمانه، فإنـه يجـد في نفسـه أنـــه لن يكـون مؤمنا إلا بـأن يكـون مجاهدا، والجهـاد لا يتـم إلا بالجـدال بالتـي هي أحسـن، والجـدال كذلك لا يمكـن إلا بالعلـم بالمقـالات والقدرة على التعامـل معها...

وليست القـــدرة على الجدال بالتي هي أحسن مـــا يحـتاجـــه المؤمـن لأجل الجهاد فحسـب بـل ويحتاجه أيضا لحمايـة إيمانه، فإنه حيث يُفترض قد جاهد في طلب الإيمان وسعى إليـــه ليحصل عليـــه، قـــد جرب أن كثيرين ينتقـــدون إيمانـــه بشكل أو آخر، بل ويطعنـون فيـه...، فهـو بحاجـة لا فقـط إلـى العلـم ببطـــلان تلك الطعـون، بل وأيضا إلى القدرة على إسـكات المنتقدين والطاعنين بـأن يجادلهم بطريقة لا تسـتفزهم...

هـــذا، وإن القدرة على الجدال... تتطـلب من العلم والحكمة مـــا لا يتوفـر لـكل مؤمن، ولا ضـرورة لذلك ما كان فـي المؤمنين

المشاركين في ما يؤمنون به أناس قادرون على الجدال بالتي هي أحسن

وعلى أي حال فبعدما علمت ما أشرت إليه واعتمدته وبنيت عليه توقعت أن من يستمع حديثي إنما يطلب به الإيمان، فصرت أسعى لأن أذكر محاسن الدين التي كنت قد جربت (الإيمان بها) آملا أن يجد فيها المستمع مؤشرات إلى ما يؤمَن به ويجاهَد...، فمثلا لما تحدثت عن (التميز) كنت أرجو أن يذكّر ذلك المستمع بما يعرفه قلبه ويجده حقا ويحبه باعتباره مما يتحقق به (العدل) الذي كنت أفترض أنه مهتم به وينشده ويعيشه في قرارة نفسه ويحتمي به وينتظره...، فيتصل ما وجده في الحديث بغيره مما كان قد حصل عليه بالتدريج وآمن به، فيزداد بذلك علمه بسبيل اللّه وضوحا ورسوخا، كما – ومن جهة أخرى – رجوت أن يذكره الحديث (بحكمة) اللّه عز وجل فيزداد بذلك معرفة به وعبادة له

أجل، كنت أعلم أن إيمان الشخص، أي حاجته إلى الأمن الحقيقي الشامل، هي (القضية) التي قد فطره اللّه عليها وعلى السعي إليها، فإذا عرفها وتعهدها واعتمدها انتظم ما يسمعه ويقرأه ويفكر فيه وأصبح هادفا، كما وتنتظم بذلك علاقاته وتتأصل حيث لا يكون إيمانه قضية شخصية له بل قضية

جميع المؤمنــين فإنهم يحبون الإيمان ويهدفون إليه ويجاهــدون لتحقيقـه، فيترصدونـه ويرجونه وينتظرونه، وإذا لمحوا فيه ما يشـير إلـى ذلـك استبشـروا بـه أخـا لهـم وعونـا فـي جهادهم في سـبيل اللّـه...، كما وأنه مـن جانبه يحب المؤمنين ويسـكن إليهم ويكون عينهـم ودليلهـم، وينصرهـم وينتصر بهم

بـل إنـه – قبل أي شـيء آخر – يعتمـد علم المهتديـن فيتبعهم ويقتــدي بهداهـم...، فإنـه لولا كذلك لـم يطمئنوا إليـه ولـم يثقوا بـه ولـم يؤاخوه إن كانـوا مؤمنين

× × × × × × × × × × × × × × × ×

تلك إشـارات سـريعة ومقتضبة جـدا إلى ما علمتـه من الدين، ومـا عرفتـه بالتجربـة، سـجلتها هنا كنفثـة مصدور حيـث لم أحقق مـا كنت في صدده، وعسـى أن يرحمنـي اللّه...

محمد علي باقري

٦ رجب ١٤٣٧